عُبُودِيةُ الأدبِ مَع اللهِ تبَارَك وتَعَالى.

دكتورة/ ثريا بنت إبراهيم السيف

الأستاذ المساعد في العقيدة والمذاهب المعاصرة

كلية الشريعة والقانون ــ جامعة المجمعة

المملكة العربية السعودية

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث علاقة العبادة بالأدب مع الله تبارك وتعالى، ويُبرِز البحث مظاهر الأدب معه سبحانه في تعظيم القلب لله، والأدب في توحيد الربوبية، وفي توحيد العبادة ، وقد توصلت إلى أن الأدب مع الله تعالى له صلة وثيقة بالعبودية له سبحانه وتعالى وما نقصت العبودية عند العبد إلا بسبب نقصه، لأن العبودية تُبنى على التعظيم لله رب العالمين الذي لن يتحقق إلا بتحقق الأدب في عبادته، كما أن من عبودية الأدب التسليم للشرع والقدر ، وأن الأدب مع النبي ﷺ هو من مقتضى عبودية الأدب مع الله، ومما يعين على حسن الأدب مع الله تعالى في موقف الصلاة العظيم أن يستحضر العبد عظمة من يقف بين يديه سبحانه، ومن ذلك أن جماع الخير في العبادات تحقيق الأدب في الدعاء لأنه هو العبادة.

الكلمات المفتاحية: الأدب–العبودية–التوحيد–الربوبية–التعظيم

Abstract:

This research explores the relationship between worship and showing proper etiquette towards Allah, the Almighty. It highlights aspects of etiquette with Him, such as reverence in the heart for Allah, proper conduct in affirming His Lordship, and adherence to monotheistic worship. The study concludes that maintaining etiquette with Allah is closely tied to servitude to Him, and any deficiency in servitude stems from a lack of proper etiquette. Servitude is built upon magnifying Allah, the Lord of the Worlds, which cannot be achieved without proper etiquette in worship. Furthermore, one aspect of servitude is submitting to divine law and decree. Showing respect to the Prophet is also an essential part of demonstrating proper etiquette towards Allah. To foster good etiquette with Allah during the profound act of prayer, a servant should reflect on the greatness of the One before whom they stand. Additionally, the essence of goodness in acts of worship lies in observing etiquette in supplication, as it is the core of worship.

Keywords: Politeness - slavery – monotheism- Deism- Exaltation

المقدمة:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد.

إن الإنسان بطبيعته يحب أن يعامله الناس بالأدب، لأنه خلقٌ حسن يحبه الناس ويحب أن يوصفوا به، ويثني كثيرٌ منهم على الشخص المؤدَّب، والإنسان يرتقي بأدبه إذا كان الأدب وصفاً لازم له، وينال به مكانةً سامية بين الناس، وكل ذلك الفضل إذا كان الأدب مع الخَلق فيما بينهم؛ كيف وإن كان الأدب مع الخالق سبحانه وتعالى؟!

إن من الفهم القاصر عند البعض ظنّهم أن الممدوح هو الذي يعامل الناس بالأدب فحسب، ويغفل بأن الأحقَّ بخلُق الأدب هو الخَالق رب الناس سبحانه وتعالى؛ لأنه سبحانه ذو الجلال والإكرام وهو صاحب الحقَّ العظيم، وما نقصت **العبودية** عند العبد إلا بسبب نقص الأدب مع الله تعالى، لأن **العبودية** تُبنى على التعظيم والذل لله رب العالمين، ولن يتحقق التعظيم لله رب العالمين إلا بتحقق الأدب في عبادة الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الزمر:٦٧).

وقد كان نبينا محمد ﷺ أعظم الناس أدبًا وأحسنهم خُلقاً مع الخالق سبحانه ومع الخلق، وقد عدّ ابن القيم الأدب من منازل العبودية لله تعالى فقال رحمه الله:" ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة (٥) مَنْزِلَةُ الأَدَبِ قَالَ اللّه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ التحريم (٦)، قالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: أَدِّبُوهُمْ وَعَلِّمُوهُمْ"[١].

كما أن الأدب مع الله تبارك وتعالى ثمرةٌ لتعظيمه والذل والخضوع له سبحانه، ولأن التعظيم لله تعالى هو أساس العبودية له سبحانه كان الأدب مع الله سبحانه يتعلق بمسائل وأبواب التوحيد، بل إن الأدب مع رب العالمين عليه مدار الدين كما قال ابن القيم رحمه الله" وَالأَدَبُ هُوَ الدِّينُ كُلُّهُ "[٢].

ومن أجل ذلك كان هذا البحث الذي أرجو الله أن أوفق فيه وأن يرزقني الله السداد والهدى لإبراز عبودية الأدب مع رب العالمين وعلاقة الأدب بالتوحيد.

أهمية البحث :

تظهر أهمية هذا البحث في حاجة المؤمن إلى التأدب مع الله تعالى في عباداته الظاهرة والباطنة، وفي علاقته مع ربه ودعائه وحديثه عنه سبحانه، ولأن الأدب مع الله له صلة وثيقة بتعظيم الله تعالى والحياء منه وكلما عظّم العبدُ ربَّه في قلبه حسُن أدبه مع ربه.

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢/٣٥٥).

(٢) المصدر السابق (٢/٣٦٥).

هدف البحث:

اظهار صلة العبادة بالأدب مع الله تعالى وابراز مظاهر الأدب في العبادات.

مشكلة البحث:

انصراف أذهان بعض الناس عند إطلاق خلق الأدب إلى الأدب مع الخَلق، فحينما يقال هذا إنسان مؤدَّب يوصف بحسن الخلق واحترام حقوق الناس، والحقُّ أن الخالقَ سبحانه هو أولى وأحق بالأدب معه سبحانه وتعالى.

حدود البحث:

سيقتصر هذا البحث على اظهار معالم الأدب مع الله تبارك وتعالى في أبواب عقدية تشمل توحيد الربوبية وتوحيد العبادة واعمال القلوب.

الدراسات السابقة:

أثناء البحث عمن سبق في الكتابة في هذا الموضوع لم أجد سوى ورقة واحدة ومقالات وبعض من خطب الجمعة، منها:

١) ورقة علمية بعنوان: "الأدب مع الله تعالى.. بين الإرشادات القرآنية العالية ومقامات التصوُّف الغالية" اعداد: الحضرمي أحمد الطلبة، منشور بتاريخ ١١-١-١٤٤١هـ في الموقع الإلكتروني لمركز سلف للبحوث والدراسات، وهو مركز يُنشر فيه مقالات تكتبها اللجنة العلمية وهيئة التحرير.

وهذه الورقة مختصرة ولم تتناول الجوانب العقدية في أبواب التوحيد، بل تضمنت إشارات يسيرة إلى بعض أمثلة الأدب مع الله في القرآن الكريم عند بعض الأنبياء والرسل والملائكة والمؤمنين ثم قارنت بينه وبين غلاة الصوفية بذكر بعض الأمثلة اليسيرة بما يتناسب مع حجم الورقة.

٢) خطبة جمعة بعنوان:" مظاهر الأدب مع الله" لسماحة مفتي المملكة العربية السعودية فضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ منشورة بتاريخ ٣٠-٠٣-١٤٣٥هـ في الموقع الالكتروني للجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، وموقع الجمعية العلمية السعودية لعلوم الأديان والفرق والمذاهب.

٣) مقالة مختصرة بعنوان:" مظاهر الأدب مع الله تعالى" للكاتب الشيخ صلاح نجيب الدق، منشور بتاريخ :٩-٤-١٤٣٨هـ في موقع الألوكة الإلكتروني.

٤) كلمة عن الأدب مع الله سبحانه، لسماحة الإمام عبد العزيز بن باز رحمه الله، لقناة (اقرأ) مع سماحته بتاريخ ١٠/٢٦/ ١٤١٩هـ. (مجموع فتاوى ومقالات الشيخ ابن باز ٢٨/ ١٩٤).

وجميع ما سبق من الدراسات السابقة ليست بحوثاً كما هو ظاهر مع ما فيها من الفوائد.

منهج البحث:

اتبعت في هذا البحث المنهج الاستقرائي التحليلي.

خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

المبحث الأول: الأدب مع الله في عبودية القلب.

المطلب الأول: الأدب في تعظيم الله.

المطلب الثاني: الأدب في اخلاص القلب لله وتوجهه للمعبود سبحانه.

المطلب الثالث: الأدب في التسليم للمشرِّع سبحانه وتعالى والرضا بالقدر.

المبحث الثاني: الأدب في توحيد الربوبية.

المطلب الأول: الأدب في نسبة النعم وشكر المنعم.

المطلب الثاني: الأدب في نسبة الخير إلى الله، وإضافة الشر إلى غيره.

المبحث الثالث: الأدب في توحيد العبادة.

المطلب الأول: الأدب في اتباع سنة نبينا ﷺ.

المطلب الثاني: الأدب في أعظم العبادات؛ الصلاة المفروضة.

المطلب الثالث: الأدب في الدعاء.

الخاتمة ونتائج البحث.

تمهيـــد:

تعريف الأدب:

قال ابن فارس:" (أَدَبَ) الهمزة والدال والباء أصل واحد تتفرع مسائله وترجع إليه: فالأدب أن تجمع الناس إلى طعامك. وهي الْمَأْدَبَةُ"(١)وقال ابن منظور: "الأَدَبُ: الّذي يَتَأَدَّبُ بِهِ الأَديبُ مِنَ النّاسِ.. وأَصل الأَدْبِ الدُّعاءُ، وَمِنْهُ قِيلَ للصَّنِيعِ يُدْعَى إِلَيْهِ الناسُ :مَدْعاةٌ ومَأْدُبَةٌ.. والأَدَبُ: أَدَبُ النَّفْسِ والدَّرْسِ .والأَدَبُ: الظَّرْفُ وحُسْنُ التّناوُلِ.. وأَدَّبه فَتَأَدَّب: عَلّمه، وَاسْتَعْمَلَهُ الزَّجّاجُ فِي اللّهِ، عَزَّ وَجَلّ، فَقَالَ: وَهَذَا مَا أَدَّبَ اللهُ تَعَالَى بِهِ نَبِيَّه ﷺ. والأدب اجتماع خصال الخير في العبد، والأَدَبُ: الظَّرْفُ وحُسْنُ التَّناوُلِ.. فمن اجتمعت فيه خصال الدعوة إلى محامد الأفعال والأخلاق والنيات، وتحلى بمجامعها، وتعلمها ثم علَّمها فذاك الأديب"(٢).

والأدب يبعث صاحبه على كل خلق حسن، وينهى عن ضد ذلك، وقد" سُمِّيَ أَدَبًا؛ لأَنَّه يَأْدِبُ النَّاسَ الَّذين يَتعلَّمونَه إلى المَحامِدِ، ويَنْهاهم عن المَقابِحِ، يَأْدِبُهم أي: يَدْعوهم"(٣) .

واختص الأدب مع الله تبارك وتعالى بأنه مرتبط بعبادته سبحانه وتعالى، وأداء حقه العظيم، وعبادته على أكمل وجه وكما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

قال ابن القيم: "والمقصود: أن الأَدَبَ مع اللّه تبارك وتعالى: هو القِيامُ بدينه، وَالتَّأَدُّبُ بِآدَابِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا. ولا يَستقيمُ لأحَدٍ قَطُّ الأدَبُ مع اللّه إلا بِثَلاثَةِ أَشْيَاء: مَعْرِفَتُهُ بِأَسْمَائِه وَصِفَاتِه، وَمَعْرِفَتُهُ بِدِينِهِ وَشَرْعِه، وَمَا يُحِبُّ وَمَا يَكْرَهُ. وَنَفْسٌ مُسْتَعِدَّةٌ قَابِلَةٌ لَيِّنَةٌ، مُتَهَيِّئَةٌ لِقَبُولِ الْحَقِّ عِلْمًا وَعَمَلا وَحَالا"(٤)

وعلى ذلك فإن الأدب مع الله سبحانه وتعالى مستلزم لعبادته سبحانه وتوحيده، فالعلاقة وثيقة بين التوحيد والأدب، فمن الآثار المروية في ذلك ما روي عن أبي حاتم السجستاني: "التوحيد موجب يوجب الإيمان فمن لا إيمان لَهُ فلا توحيد لَهُ، والإيمان موجب يوجب الشريعة فمن لا شريعة لَهُ فلا إيمان لَهُ ولا توحيد، والشريعة موجب يوجب الأدب فمن لا أدب لَهُ لا شريعة لَهُ ولا إيمان ولا توحيد"(٥).

وذُكر" عن ابن سيرين أَنّهُ سئل أي الآداب أقرب إِلَى اللّه تعالى فقال: معرفة ربوبيته، وعمل بطاعته والحمد لِلّهِ عَلَى السراء، والصبر عَلَى الضراء"(٦).

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس (٧٤/١).

(٢) لسان العرب لابن منظور (٢٠٦/١).

(٣) تهذيب اللغة للأزهري (١٤٧/١٤).

(٤) مدارج السالكين لابن القيم (٣٦٥/٢).

(٥) الرسالة القشيرية لعبدالكريم القشيري (٤٤٦/٢).

(٦) المصدر السابق (٤٤٦/٢).

وقد ذكر ابن القيم تعريفاً للأدب فقال: "هذه اللّفظة مُؤذِنةٌ بالاجتماع، فالأدب اجتماع خصال الخير في العبد.. وعلم الأدب: هو علم إصلاح اللّسان والخطاب، وإصابة مواقعه، وتحسين ألفاظه، وصيانته عن الخطأ والخلل. وهو شعبةٌ من الأدب العامِّ.. والأدب ثلاثة أنواعٍ: أدبٌ مع الله، وأدبٌ مع رسوله وشرعه، وأدبٌ مع خَلْقه.

فالأدب مع الله ثلاثة أنواع: أحدها: صيانة معاملته أن يشوبها بنقيصةٍ.

الثّاني: صيانة قلبك أن يلتفت إلى غيره.

الثّالث: صيانة إرادتك أن تتعلّق بما يَمْقُتك عليه."(١)

ولما كان الأدب يجمع كل خلق حميد وينهى عن كل فعل قبيح فإن الأحق به هو رب العالمين سبحانه وتعالى، ولما كان الأدب هو اعطاء كل ذي حق حقه فحق الله التعظيم والذل الذي هو أصل العبادة، فمن الأدب مع الله أن نعظمه ونقدره حق قدره، ونعمل بما يرضيه عنا ويحبه من مقتضى حقه في ألوهيته وربوبيته، يقول ابن القيم رحمه الله: «الأدب مع الله حسن الصحبة مع الله بإيقاع الحركات الظاهرة والباطنة على مقتضى التعظيم والإجلال والحياء"(٢).

وينبعث الأدب مع الله تعالى إذا عرف العبد قدر ربه وعظمته وقد بين العُلَماء بمَ يكون الأدب مع الله، ومنه العلامة محمد بن صالح العثيمين حيث قال رحمه الله:" فالأدب مع الله تعظيم الله عز وجل، وألا يتقدم الإنسان بين يديه في تحليل حرام أو تحريم حلال أو إيجاب ما لم يوجبه، وكذلك لا يعصي الله عز وجل لا سرًا ولا علنًا؛ لأن الذي يعصي الله لم يتأدب مع الله عز وجل فالأدب مع الله: هو عبارة عن القيام بطاعته وتعظيمه؛ وألا يتقدم الإنسان بين يديه، إلى غير ذلك من الآداب.ومن الأدب مع الله أن تتأدب مع الله تعالى بما تتأدب به مع الناس."(٣)

وأعظم الناس أدباً مع ربهم سبحانه، هم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:" وتأمّلْ أحوالَ الرُّسل مع الله، وخطابَهم وسؤالَهم، كيف تجدها كلّها مشحونةً بالأدب قائمةً به"(٤).

والخلاصة أن الأدب مع الله تعالى لا يمكن أن يتحقق إلا بقيام العبد بعبوديته سبحانه على الوجه الذي شرعه لنا نبينا ﷺ ويبدأ بتعظيمه سبحانه ومعرفته بأسمائه وصفاته وآياته وأفعاله وثمرة ذلك سعادة العبد واستجلاب خير الدنيا والآخرة.

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١٤٠/٣-١٤١).

(٢)مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية، الجزء الثالث(١٤٣).

(٣) فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام للشيخ محمد العثيمين رحمه الله (٢٣٧/٦).

(٤) مدارج السالكين (١٤٥/٣).

يقول ابن القيم رحمه الله: "وأدب المرء عنوان سعادته وفلاحه، وقلة أدبه عنوان شقاوته وبواره، فما استُجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استجلب حرمانها بمثل قلة الأدب"(١).

(١) المصدر السابق (٢/٢٩٧-٢٩٨).

المبحث الأول: الأدب في عبودية القلب.

المطلب الأول: الأدب في تعظيم الله.

لا يمكن أن يتأدب العبد مع الله إلا بتعظيمه في قلبه، ولا يُعظَّم العظيم سبحانه ويعطى حقه إلا بمعرفة قدره، لذا كان أول طريق الأدب مع الله سبحانه معرفة قدره تبارك وتعالى ليُعظَّم في القلب ويُتعلق به حباً وخوفاً ورجاءً وذلا له.

والعبادة لا تقوم لله إلا مع غاية الذل والتعظيم له سبحانه وتعالى ولن يستقيم تعظيم الله تعالى إلا بمعرفة قدره.

قال تعالى ﴿مَّا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلّهِ وَقَاراً﴾ نوح (١٠٣).

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ سورة الزمر (٦٧).

جاء حبرٌ من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقال : إنَّه إذا كان يومُ القيامة جعل اللهُ السَّماوات على أصبعٍ ، والأرْضين على أصبعٍ ، والجبالَ والشَّجرَ على أصبعٍ ، والماءَ والثَّرَى على أصبعٍ ، والخلائقَ كلَّها على أصبعٍ ، ثمَّ يهزُّهنَّ ثمَّ يقولُ : أنا الملكُ أنا الملكُ ، قال : فلقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ ضحك حتَّى بدت نواجذُه ، تعجُّبًا له ، وتصديقًا له ، ثمَّ قال رسولُ الله ﷺ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾."[1]

قال ابن بطال: "وحاصل الخبر أنه ذكر المخلوقات، وأخبر عن قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى جَمِيعِهَا، فضحك النبي ﷺ تصْدِيقًا لَهُ وَتَعَجُّبًا مِنْ كَوْنِهِ يَسْتَعْظِمُ ذلك في قدرة الله تعالى، وأن ذلك ليس في جَنْبِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ بِعَظِيمٍ، ولذلك قرأ قوله تعالى :﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآية، أي :لَيْسَ قَدْرُهُ فِي الْقُدْرَةِ عَلَى مَا يَخْلُقُ عَلَى الْحَدِّ الَّذِي يَنْتَهِي إِلَيْهِ الْوَهْمُ، وَيُحِيطُ بِهِ الْحَصْرُ؛ لأنه تَعَالَى يَقْدِرُ عَلَى إِمْسَاكِ مخلُوقَاته على غير شَيءٍ كَمَا هي اليَومِ، قَالَ تَعَالَى :﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا﴾ وَقَالَ: ﴿رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ "[2]

قال الإمام ابن باز رحمه الله:" هذه الآية العظيمة تبين عظم قدرته، وأنه الخلاق العليم، وأنه يطوي السماوات ويقبض الأرض، فدل ذلك على عظم قدرته، ومن كان بهذه المثابة فهو حري بأن يعبد ويطاع ويعظم، وهو الذي له الكمال في أسمائه وصفاته وأفعاله، لا شبيه له،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى :(إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا) برقم (٧٤٥١).

(٢) فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر (٣٩٨/١٣).

ولا ند له، ولا يقاس بخلقه ، فالله جل وعلا له الصفات العليا والأسماء الحسنى.. ومن ذلك يُعلَم أيضا أنه المستحق للعبادة، وأنه لا يستحقها سواه."(١)

وعن ابن عمر مرفوعاً: "يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟" (٢).

إن السَّمواتُ والأرضُ –وما فيهما من مخلوقات أخرى – من إبداع صنع الخالق سبحانه وهم خلقٌ من خلقه تبارك وتعالى منقادة لأمره ونهيه، وهما في يَدِه سبحانه وفي قَبْضتِه، لا يَخْفى عنه منهما شَيءٌ، خاضعون له ولعظمته وقدرته على كل شيء.

وما خفي عنّا من عظمة خلق الله في السماوات والأرض وما فيهما، أعظم مما ظهر وما فيهما من عظمة الخلق تدل –لمن كان له قلب– على عظمة الخالق تبارك وتعالى قال الله تبارك وتعالى:﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سورة غافر (٥٧)

كما أن عظمة المسافة بين السماوات، وعظمة الكرسي والعرش الذي فوقهما تلفتُ قلبَ المؤمن إلى تعظيم الخالق المبدع سبحانه وتعالى، فعن ابنِ مسعودٍ رضي اللَّه عنه قال: "بين السماءِ الدنيا، والتي تليها خَمْسمِائَةِ عامٍ، وبين كلِّ سماءٍ وسماءٍ خمسُمائةِ عامٍ، وبين السماءِ السابعةِ والكرسيِّ خمسُمائةِ عامٍ، وبين الكرسيِّ والماءِ خمسُمائةِ عامٍ، والعرشُ فوق الماءِ، واللهُ تعالى فوق العرشِ، لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالكم"(٣). فإذا كان ذلك شيئاً من عظمة المسافة بين مخلوقاته العظيمة تبارك وتعالى فكيف بعظمة الخالق جلا وعلا؟!

وهو مع ذلك لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، يعلم كل شيء، ولا يعزب عنه شيء، قال تعالى عن علمه:

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾. الانعام (٥٩).

وسع سمعه كل شيء وقد أحاط بكل شيء علماً، تقول أمنا عائشة رضي الله عنها وأرضاها واصفة سمع ربها:" الحمدُ للهِ الذي وسِعَ سمعُه الأصواتَ، لقَد جاءتِ المُجادلةُ إلى رسولِ اللَّهِ

(١) موقع الإمام ابن باز رحمه الله: https://binbaz.org.sa/audios/٢٠٨٢/٧٤ -باب-قول-الله-تعالى-وما-قدروا-الله-حق-قدره-والارض-جميعا-قبضته-يوم-القيامة-والسماوات-مطويات-بيمينه

(٢)أخرجه البخاري مختصرًا في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى (لما خلقت بيدي) برقم (٧٤١٢)، وأخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار برقم(٢٧٨٨) .

(٣)أخرجه الطبراني في الكبير (٨٩٨٧) والبيهقي في الأسماء (٤٠١) والخطيب في الموضح (٤٧/٢)، وصححه الذهبي في العلو ص(٦٤) وابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية (١٠٠)، وقال ابن باز في شرح كتاب التوحيد صحيح جيد(٣٨٩).

ﷺ تُكَلِّمُه وأنا في ناحية البيت ما أسمعُ ما تَقولُ فأنزلَ اللَّهُ، عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ الآية"(١)

ويقول سبحانه وتعالى عن نفسه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ آل عمران: (٥).

إن القلب المؤمن حين يتأمل في تلك النصوص ونحوها لا يملك إلا أن يذعن لربه ويخبت له تعظيماً وذلاً له سبحانه، وإنه ليستحي أن يقصّر في عبادته فضلاً عن أن يسيء الأدب معه جل وعلا، بل إنه ليُقرّ أن من حقه سبحانه التعظيم والخضوع والذل، كما أنه سبحانه أهل التقوى التي تثمر وقوف المؤمن عند حدوده وتجعله يعظم شعائره وحرماته قال تبارك وتعالى ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ الحج (٣٢).

إنّ من أدب العبودية أن يعظم المؤمن شعائر الله وحرمات الله قال الله جل وعلا: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ الحج (٣٠)، فتُعَظم الأزمنة والأمكنة التي أمر الله بتعظيمها فتعظم الأشهر الحرم، ويُعَظَّم رمضان، وعشر ذي الحجة، ويوم الجمعة، وتعَظَّم أماكن العبادة، ويُعَظَّم الحرمين الشريفين، والمسجد الأقصى تعظيماً لله، ويُعَظَّم شرع الله ودينه ويُعَظَّم أهل التقوى والصلاح، ويُعَظَّم كل من عظم الله، وكل من أمر بتعظيمه وتوقيره من ولاة الأمر والعلماء والوالدين كل ذلك من تعظيم حرمات الله ومن الأدب مع الله تعالى.

كما أن من ثمرات تعظيم الله أن يكون الله هو الأعلى في قلب المؤمن في ابتغاء وجهه في كل عمل، وانقياد القلب والجوارح.

وكذلك يظهر أثرُ التعظيم في تحقيق العبودية في القلب **وأعظمها ركائز العبادة** المحبة والخوف والرجاء لله تعالى.

أما المحبة فهي منزلة عظيمة من منازل عبودية القلب وهي قرينة التعظيم، " وهي محبة العبودية، المستلزمة للذل، والخضوع والتعظيم، وكمال الطاعة، وإيثاره على غيره، فهذه المحبة لا يجوز تعلقها بغير الله أصلاً، كما حققه ابن القيم، وهي التي سوَّى المشركون بين الله تعالى وبين آلهتهم فيها ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ "(٢)

(١)أخرجه أحمد في مسند الصديقة عائشة بنت الصديق رضي الله عنها (٢٢٨/٤٠) برقم (٢٤١٩٥) وقال شعيب الأرناؤوط اسناده صحيح على شرط مسلم، وابن ماجة في سننه (١٨٨/١) برقم (١٨٨) وقال الألباني في الإرواء صحيح (١٧٥/٧)، صححه ابن عساكر في معجم الشيوخ (١٦٣/١).

(٢) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (٤٠٢-٤٠٣).

فمن **عبودية الأدب** مع الله محبته جل وعلا المحبة الصادقة التي تزداد حين يستحضر العبد أن الله جل وعلا أنعم عليه بنعم عظيمة أوجده من العدم، ورباه بالنعم وأحسن خلقه فجعله في أحسن تقويم وأمده بالسمع والبصر قال تعالى:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) ﴾ الإنسان (١-٢).وأسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة، فكلما تدبر نعم الله عليه وإفضاله وإحسانه ازداد حباً لله جل وعلا، حتى يصبح العبد كما وصفه ﷺ بقوله : "ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا"(١)، ثم تنتقل هذه المحبة ولابد إلى محبة واتباع أوامر النبي ﷺ واجتناب نواهيه قال جل وعلا: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللَّهُ﴾ ال عمران (٣١).

وإذا كان التعظيم ثمرة العلم بالله فإن من ثماره الخوف منه سبحانه خوف العبادة والرغبة فيما عند الله والخشوع له قال جل وعلا في مدح بعض أنبياءه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ وقال عن ملائكته الذين قد أمنهم من عذابه :﴿يَخافُونَ رَبَّهم مِن فَوْقِهِمْ ويَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾ النحل (٥٠)، وفى الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: " فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية"(٢).

وقد قال تعالى :﴿إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِن عِبادِهِ العُلَماءُ﴾ فاطر (٢٨)، فكلما كان العبد بالله أعلم كان له أخوف، وهو الخوف من الله وحده الذي يحول بين العبد وبين محارم الله عز وجل، ومن آثار هذه العبودية؛ **حسنُ الأدب** وقوة القلب وبعثه للجوارح، واقباله على الطاعات ونشاطه فيها وإقامتها مع الذل والخشوع للمعبود سبحانه وتعالى.

وكلما قويت **عبودية الأدب** والتعظيم لله تعالى تتابعت عبادات القلب الأخرى، كاستشعار مراقبة الله لك في السر والعلانية لأن العبد في مُلكه وقبضته ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ التغابن (٤). ثم الاخبات والإنابة والتوبة لله رب العالمين، وأن يعرف العبد قدره وأنه عبد فقير إلى ربه في كل أحواله.

إن الله تعالى عظيمٌ في ذاته، عظيمٌ في اسمائه وصفاته، عظيمٌ في أفعاله، عظيمٌ في خلقه وآياته سبحانه وتعالى، ومن حق العظيم سبحانه أن تذلَّ لعظمته جميع مخلوقاته ويتأدّب معه كل عباده فيمتثلون أمره ونهيه في جميع أحوالهم.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان برقم (١٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب برقم (٦١٠١).

المطلب الثاني: الأدب في إخلاص القلب لله وتوجهه للمعبود سبحانه.

إنَّ إخلاص القلب للربّ جل جلاله وإفراده بالتوحيد هو أعظم الأدب، ولذا كان الشرك بالله أسوء الأدب، ولاريب في ذلك، لأن صرف العبادة لغير مستحقها أعظم الظلم، كم قال لقمان لابنه مؤدباً له: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان (٣١). فهو سبحانه لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً لوجهه، نقياً من الرياء والسمعة.

وإفراد الله بالعبادة أول واجب على العبد، وأولى درجات الأدب مع الله تعالى، وتظهر عبودية الأدب مع الله سبحانه ابتداء من دخول العبد في الإسلام، ثم إذعان قلبه بالإيمان، إلى أن يصل إلى مرتبة الإحسان التي وصفها النبي ﷺ حين سأله جبريل: ما الإحسان؟ فقال:(أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) [١].

وعبودية الأدب مع الله تجعل المؤمن يحرص على الطاعة في السر والعلانية، وقد سئل النبي ﷺ عن الإحسان، فقال: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) [٢].

و" معناه أنك إِنَّمَا تُرَاعِي **الآداب** المذكورة إذا كنت تَرَاهُ وَيَرَاكَ، لِكَوْنِهِ يَرَاكَ لا لكونك تراه فهو دَائِمًا يَرَاكَ، فَأَحْسِنْ عِبَادَتَهُ وَإِنْ لَمْ تَرَهُ، فتقدير الحديث: فإن لم تكن تراه فاستمر على إحسان العبادة فإنه يراك"[٣].

وهنا لفتة لطيفة أوردها ابن حجر اثناء شرح هذا الحديث في فتح الباري تدل على أثر مرتبة الإحسان على عبودية الأدب لله تعالى حيث:" نَدَبَ أَهْلُ التَّحْقِيقِ إِلَى مُجَالَسَةِ الصَّالِحِينَ ليكون ذلك مَانِعًا مِنَ التَّلَبُّسِ بشيءٍ من النَّقَائِصِ احترَامًا لهم واستحياءً منهُم، فَكَيْفَ بمن لا يَزَالُ اللَّهُ مُطَّلِعًا عَلَيْهِ في سرّهِ وعلانيته؟"[٤].

وعبودية الأدب مع الله تقتضي تصفية الأعمال مما يشوبها والإخلاص للعظيم سبحانه، قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ الكهف(١١٠) .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير، باب قوله:(إن الله عنده علم الساعة) برقم (٤٧٧٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الإيمان والإسلام والإحسان برقم (٨).

(٢) أخرجه البخاري في "صحيحه"، كتاب: الإيمان باب سؤال جبريل النبي عن الإيمان برقم (٥٠).

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (١٢٠/١).

(٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (١٢٠/١).

فالله تعالى هو العظيم الغني لا إله إلا هو تعالى عن الشريك، **فمن عظيم الأدب معه** أن ينزه العبد عمله عن الشرك بالمخلوقين، وفي الحديث القدسي يقول ﷺ: "قال الله أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِى تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ"(١)

قال الشيخ العثيمين رحمه الله:" إذا عمل الإنسان عملا لله ولغير الله، تركه الله، لو صلى الإنسان لله وللناس لم يقبل الله صلاته، لا يقال إنه يقبل نصفها ويترك نصفها، أو يقبلها قبولا نصفيا، لا لا يقبلها أبدا، لو تصدق الإنسان بصدقة يرائي بها الناس فإنها لا تقبل منه، لأن الله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك إذا عمل الإنسان عملا أشرك فيه مع الله غيره فإن الله لا يقبله منه، وفي هذا دليل على أن الرياء إذا شارك العبادة فإنها لا تقبل، فلو أن الإنسان صلى أول ما صلى وهو يرائي الناس لأجل أن يقولوا فلان ما شاء الله يتطوع يصلي ويكثر الصلاة، فإنه لا حظَّ له في صلاته ولا يقبلها الله عز وجل"(٢)

ومن عبودية الأدب مع الله تعالى تعظيم أوامره، والمبادرة في أدائها والمسارعة والمسابقة إليها، قال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ البقرة(٨٤١)، وقد حث سبحانه وتعالى عباده على المسارعة في الصالحات لنيل رضوانه فقال سبحانه مرغباً لعباده ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (٣٣١) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ال عمران (٣٣١).

فمن لازم حياء العباد من الله تعالى أن يدعو الله عباده لجنات عرضها السماوات والأرض، وهو الغني عنهم ثم لا يبادرون في الاستجابة لترغيبه!

ومن **عبودية الأدب** مع الله ألا يستعين المؤمن إلا بالله وحده، وقد كان ﷺ يربي أصحابه على إخلاص تلك العبادة فكان يوصي ابن عباس رضي الله عنهما وهو غلام صغير فيقول له :(يا غُلامُ إنِّي أعلِّمُكَ كلماتٍ ، احفَظِ اللَّهَ يحفَظْكَ ، احفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تجاهَكَ ، إذا سأَلتَ فاسأَلِ اللَّهَ ، وإذا استعَنتَ فاستَعِن باللَّهِ ، واعلَم أنَّ الأمَّةَ لو اجتَمعت علَى أن ينفَعوكَ بشَيءٍ لم يَنفعوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتبَهُ اللَّهُ لَكَ ، ولو اجتَمَعوا على أن يضرُّوكَ بشَيءٍ لم يَضرُّوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتبَهُ اللَّهُ عليكَ ، رُفِعَتِ الأقلامُ وجفَّتِ الصُّحفُ.)(٣)

وكلما قوي الأدب في العبودية لله تعالى وتحقق التوحيد لم يسأل العبد إلا الله سبحانه وتعالى وقد اختص النبي ﷺ بعض الصحابة بذلك كما في حديث عوف بن مالك الأشجعي قال:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله برقم (٢٩٨٥).

(٢) شرح رياض الصالحين لابن عثيمين رحمه الله (٣٤١/٦).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) واللفظ له، وأحمد في "المسند" (٤/ ٤٠٩) رقم (٢٦٦٩) قال الألباني في صحيح الترمذي حديث صحيح.

"كُنَّا عِنْدَ رَسولِ اللهِ ﷺ، تِسْعَةً، أوْ ثَمانِيَةً، أوْ سَبْعَةً، فقالَ: ألا تُبايِعُونَ رَسولَ اللهِ؟ وكُنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ ببَيْعَةٍ، فَقُلْنا: قدْ بايَعْناكَ يا رَسولَ اللهِ، ثُمَّ قالَ: ألا تُبايِعُونَ رَسولَ اللهِ؟ فَقُلْنا: قدْ بايَعْناكَ يا رَسولَ اللهِ، ثُمَّ قالَ: ألا تُبايِعُونَ رَسولَ اللهِ؟ قالَ: فَبَسَطْنا أيْدِيَنا وقُلْنا: قدْ بايَعْناكَ يا رَسولَ اللهِ، فَعَلامَ نُبايِعُكَ؟ قالَ: علَى أنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ ولا تُشْرِكُوا به شيئًا، والصَّلَواتِ الخَمْسِ، وتُطِيعُوا، (وأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً)، ولا تَسْأَلُوا النَّاسَ شيئًا. فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أُولَئِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ أحَدِهِمْ، فَما يَسْأَلُ أحَدًا يُناوِلُهُ إيَّاهُ."(١)

قال القرطبي: " وأخذه ﷺ على أصحابه في البيعة ألا يسألوا أحدا شيئاً: حملٌ منه على مكارم الأخلاق، والترفع عن تحمل منّة الخلق، وتعليم الصبر على مضض الحاجات، والاستغناء عن الناس، وعزة النفوس، ولمّا أخذهم بذلك التزموه في جميع الأشياء وفي كل الأحوال، حتى فيما لا تلحق فيه منة"(٢)

واختصاص النبي ﷺ لهؤلاء النفر من الصحابة بألا يسألوا الناس شيئاً وإسراره لهم بذلك دليلٌ على أن هذا الأدب في العبودية لله تعالى لا يستطيعه كل أحد، لذلك لم يبايع النبي ﷺ جميع الصحابة عليه لاختلاف أحوالهم وقدراتهم.

قال العيني "(وأسر كلمة خفية) يشبه أن يكون ﷺ أسر النهي عن السؤال، ليخص به بعضهم دون بعضه ولا يعمهم بذلك؛ لأنه لا يمكن العموم، إذ لا بد من السؤال، ولا بد من التعفف، ولا بد من الغنى، ولا بد من الفقر، وقد قضى الله تبارك وتعالى بذلك كله "(٣) .

ولذا كان النبي ﷺ يطلب ذلك ممن استطاع الأدب العالي في تحقيق العبودية لقطع تعلق القلب بالخلق

وإفراد الخالق وحده بذلك، ومما يدل على ذلك حديثُ ثوبان رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال:" مَنْ يتكفل لِي بِوَاحِدَةٍ وَأَتَكفلُ لَهُ بِالْجَنَّةِ؟ " قَالَ: قُلْتُ: أَنَا. قَالَ: لا تَسْأَلِ النَّاسَ شَيْئًا، فَكَانَ ثَوْبَانُ يَقَعُ سَوْطُهُ وَهُوَ رَاكِبٌ، فَلا يَقُولُ لِأَحَدٍ نَاوِلْنِيهِ حَتَّى يَنْزِلَ فَيَتَنَاوَلَهُ"(٤).

وهذه بشرى منه ﷺ لثوبان بدخول الجنة بلا حساب جزاء لسؤال الله وحده دون خلقه قال الآبادي في شرح الحديث: " أي أوّلا من غير سابقة عقوبة، وفيه إشارة إلى بشارة حسن الخاتمة "(٥).

(١)أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الزكاة باب كراهة المسألة للناس برقم (١٠٤٣).

(٢) المفهم في شرح صحيح مسلم للقرطبي (٨٦/٣).

(٣) شرح سنن أبي داود للعيني (٣٩٣/٦).

(٤) رواه أبو داود (١٤٥٠) وغيره، وصححه الألباني .

(٥)عون المعبود في شرح سنن أبي داود (٣٩/٥).

إن اليقين بأن الله تعالى هو القادر على العطاء والمنع، فلا يسأل إلا هو سبحانه ولا يتوجه إلا إليه بالطلب هو من **كمال الأدب** معه وتربية للعبد على **الأدب** مع الخالق ثم الخلق، لأن الناس يحبون من يستغني عنهم ويرونه عزيزاً ولا يُقبِلون على كثير المسألة، بل تقلّ قيمة الشخص عندهم كلما أكثر من مسألتهم.

إن الأدب مع الله هو زينة العبودية، وهو دافع للعبد إلى الترقي في كمالات كل العبادات، وكما أن الإيمان لا يصدّق إلا بالعمل، فكذا الأدب مع الله لا يصدق إلا بعبودية القلب وإخلاص كل العبادات لله وحده لا شريك له سبحانه.

المطلب الثالث: الأدب في التسليم للمشرِّع سبحانه وتعالى والرضا بالقدر.

إن العبودية لله تعالى مبنية على التسليم للمشرع الحكيم سبحانه، وعدم الاسترسال في البحث عن الحكمة في كل أمر أو نهي أو تقدير، ومن **أدب العبد** الذي يؤمن بنقصه وكمال ربه؛ أن يسلّم التسليم المطلق لكل تدبير لربه في الكون، ويتحقق ذلك كلما ازداد العبد معرفة بربه، واسمائه الحسنى، وصفاته العلى، وذلك يزيد يقينه بأن ربه حكيم عليم خبير سبحانه، ويظهر أدبُ العبد مع ربه في استسلامه لنصوص الكتاب والسنة، والانقياد لمراد الله تعالى فيها دون أدنى اعتراض أو شك في الحكمة وذلك هو صريح الإيمان، قال تعالى:﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾. النساء (٦٥).

قال ابن كثير رحمه الله: "يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة: أنه لا يؤمن أحد حتى يحكِم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنا وظاهرا؛ ولهذا قال: ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليماً، أي: إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم، فلا يجدون في أنفسهم حرجا مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن، فيسلمون لذلك تسليما كلياً، من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة"(١).

قال ابن القيم رحمه الله: "فأقسم: أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله ﷺ، وحتى يرتفع الحرج من نفوسهم من حكمه، وحتى يسلموا لحكمه تسليماً وهذا حقيقة الرضا بحكمه.. فالتحكيم: في مقام الإسلام. وانتفاء الحرج: في مقام الإيمان. والتسليم: في مقام الإحسان"(٢)

قال ابن أبي العز الحنفي رحمه الله تعالى:" اعلم أن مبنى العبودية والإيمان بالله وكتبه ورسله، على التسليم، وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحكمة في الأوامر والنواهي والشرائع.. ولهذا كان

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير رحمه الله (٣/ ٣٤٩).
(٢) مدارج السالكين (١٨٩/٢).

سلف هذه الأمة. التي هي أكمل الأمم عقولا ومعارف وعلوما – لا تسأل نبيها: لم أمر الله بكذا؟ ولم نهى عن كذا؟ ولم قدّر كذا؟ ولم فعل كذا؟ لعلمهم أن ذلك مضاد للإيمان والاستسلام، وأنّ قدَمَ الإسلام لا تثبت إلا على درجة التسليم...فالله سبحانه وتعالى لا يُسألُ عمّا يفعَل، لكمال حكمته ورحمته وعدله"[1].

وعلى العبد أن يحمد الله تعالى أنه سبحانه وتعالى أمره بالتسليم لحكمِ أحكمِ الحاكِمين، ولم يكِلهُ إلى حُكمِ جاهليّ ظالمٍ جائرٍ، وليحفظ هذه النعمة، ويحذر من استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير

قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ المائدة (٥٠)

إن من لازمِ أدب العبد أن يكون واثقاً بحكم ربه، ومنذ دخوله في الإسلام لابد أن يكون مستسلمًا لربه بالطاعة منقاداً له قلباً وقالباً، بل حتى الهوى لابد أن ينقاد لربه.

ومن عبودية الأدب مع الله تبارك وتعالى أن يحفظ لسانه عن القول في دين الله أو شرعه بما لا يعلم، فلا يفتي برأي أو ظن وقد حذر الله عباده من القول عليه بلا علم، وجعله قرين الشرك والكبائر.

قال ابن القيم رحمه الله:" وقد حرم الله سبحانه القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرمات ، بل جعله في المرتبة العليا منها قال الله جل وعلا: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ الأعراف (٣٣).فرتب المحرمات أربع مراتب :وبدأ بأسهلها وهو الفواحش، ثم ثَنَّى بما هو أشد تحريما منه وهو الإثم والظلم، ثم ثَلَّث بما هو أعظم تحريما منها وهو الشرك به سبحانه، ثم ربَّع ما هو أشد تحريماً من ذلك كله وهو القول عليه بلا علم ، وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه"[2] .

وإذا كان الافتراء على عامة الناس من القبائح التي يجب أن يتنزه عنها المؤمن فالافتراء على رب الناس من باب أولى ولله المثل الأعلى، قال تعالى: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ النحل (١١٦-١١٧)، لأن التشريع والحلال والحرام من خصائص ربوبية الله تبارك وتعالى، فمن سوء الأدب مع الله منازعته تعالى في

(١)شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (٢٦١ – ٢٦٢).

(٢)إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم الاجوزية (٣٨/١).

حقه بالتشريع والحلال والحرام، فكل من أفتى بغير علم فقد كذب على الله وأساء الأدب معه سبحانه.

ومن عبودية الأدب مع الله تبارك وتعالى عدم التألّي على الله تبارك وتعالى بالحكم على أعمال الناس أو القطع بمصير آحادهم لأن ذلك حقٌّ لخالقهم، وقد أخرج مسلم عن جُندب، أَنَّ رسُول ﷺ حَدَّثَ: (أَنَّ رَجُلا قالَ: واللَّه لا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلانٍ، وإِنَّ اللَّهَ تَعالَى قالَ: مَن ذا الذي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لا أَغْفِرَ لِفُلانٍ، فإِنِّي قدْ غَفَرْتُ لِفُلانٍ، وأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ)[1] ومعنى" يَتَأَلَّى: يَحْلِفُ، وَالأَلْيَةُ: الْيَمِينُ "[2] .

لأن مغفرة الذنوب لعباده –لما هو دون الشرك به– من خصائص الله سبحانه، فإن من لم يتلوث بالشرك فإنه تحت مشيئة خالقه إن شاء غفر له وإن شاء عذبه بذنبه، وفي تفاصيل قصة الرجلين ما يدل على أن الرجل من بني اسرائيل كَلَّ من نصيحة صاحبه المسرف على نفسه، فغضب عليه ثم أقسم بنفي مغفرة الله له! ومما جاء فيها في رواية أخرى: "ما رواه ضمضم بن جوس اليمامي، قال: قال لي أَبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: يا يَمامِيُّ، لا تَقولَنَّ لِرَجُلٍ: وَاللهِ لا يَغْفِرُ اللهُ لك، أو لا يُدْخِلُكَ اللهُ الجَنَّةَ أَبَدًا. قلتُ: يا أَبا هُرَيْرَةَ، إِنَّ هَذِه لَكَلِمَةٌ يَقولُها أَحَدُنا لأَخيهِ وَصاحِبِهِ إِذا غَضِبَ. قال: فَلا تَقُلْها، فإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقولُ: (كان في بني إِسْرَائيلَ رَجُلانِ، كان أَحَدُهُما مُجْتَهِدًا في الْعِبادَةِ، وكانَ الآخَرُ مُسْرِفًا على نَفْسِه، فكانا مُتَآخِيَيْنِ، فكان المجتهِدُ لا يزالُ يَرى الآخَرَ على ذَنْبٍ، فَيَقولُ: يا هَذا، أَقْصِرْ. فَيَقولُ: خَلِّني وَرَبِّي، أَبُعِثْتَ عليَّ رَقيبًا؟ قَالَ: إِلى أَن رَآهُ يَوْمًا على ذَنْبٍ اسْتَعْظَمَهُ، فقالَ لهُ: وَيْحَكَ، أَقْصِرْ. قال: خَلِّني وَرَبِّي، أَبُعِثْتَ عليَّ رقيبًا، قال: فقال: وَاللهِ لا يَغْفِرُ اللهُ لك، أَو لا يُدْخِلُكَ اللهُ الجَنَّةَ أَبَدًا. قال أَحَدُهُما، قال: فبعث اللهُ إِلَيهما مَلَكًا، فقبض أَرْوَاحَهُما، واجْتَمَعا عندَهُ، فقال لِلْمُذْنِب: اذْهَبْ فادْخُلِ الجَنَّةَ برَحْمَتي. وقال لِلآخَرِ: أَكُنْتَ بي عالمًا، أَكُنْتَ على ما في يَدي قادرًا، اذْهَبُوا بهِ إِلَى النَّارِ. قال: فوالَّذي نفْسُ أَبي الْقَاسمِ بِيَدِه، لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْياهُ وَآخِرَتَهُ)"[3]

ولذا فإن العبد المؤمن المخبت إلى ربه يزداد أدبه مع ربه كلما ازداد عبودية له سبحانه، كما يزداد خضوعاً وذلّة ورحمة بإخوانه المسلمين، فلا يقنطهم من رحمته فضلاً على التَّرفُّعِ عليهم بالأعمالِ الصَّالحة؛ لأنَّ اللهَ سُبحانَه وتَعالَى بيده الأمر كله، وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يُقلِّبُها كيْف يَشاءُ وفي هذا القصة تربية عظيمة القدر لكل مؤمن على

(١)أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب : البر والصلة والآداب باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى برقم (٢٦٢١).
(٢) شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٧٤).
(٣) أخرجه أحمد في المسند (١٤/ ٤٦) برقم (٨٢٩٢)، وأبو داود (٤٩٠١) واللفظ له وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

معرفة قدره، وتحذير من تجاوز حدّه أو إساءة الأدب بكلمة قد تحبط عمله فيخسر دنياه وآخرته نسأل الله العافية.

إن الله تبارك تعالى أدّبَ أعظم الخلق خُلقاً نبينا محمد ﷺ، وبين له أنه ليس له من أمر هداية التوفيق شيء فقال جل وعلا: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ القصص (٥٦) فكيف بمن دونه؟!

ولما بلغ من النبي ﷺ ما بلغ من الأذى من قومه "كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ يَومَ أُحُد، وَشُجَّ فِي رَأْسِهِ، فَجَعَلَ يَسْلُتُ الدَّمَ عنْه، ويقولُ: كيفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ، وكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ، وَهو يَدْعُوهُمْ إلى اللهِ؟! فأنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ آل عمران(١٢٨)."[١].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى:" لمّا جرى يوم "أحد" ما جرى، وجرى على النبي ﷺ مصائب، رفع الله بها درجته، فشج رأسه وكسرت رباعيته، قال: (كيفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ)، وجعل يدعو على رؤساء من المشركين مثل أبي سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، أنزل الله تعالى على رسوله نهيا له عن الدعاء عليهم باللعنة والطرد عن رحمة الله: (لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ)؛ إنما عليك البلاغ وإرشاد الخلق والحرص على مصالحهم، وإنما الأمر لله تعالى هو الذي يدبر الأمور، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء، فلا تدع عليهم، بل أمرهم راجع إلى ربهم، إن اقتضت حكمته ورحمته أن يتوب عليهم ويمن عليهم بالإسلام فعل، وإن اقتضت حكمته إبقاءهم على كفرهم وعدم هدايتهم، فإنهم هم الذين ظلموا أنفسهم وضروها وتسببوا بذلك، فعل، وقد تاب الله على هؤلاء المعينين وغيرهم، فهداهم للإسلام رضي الله عنهم، **وفي هذه الآية مما يدل على أن اختيار الله غالب على اختيار العباد، وأن العبد وإن ارتفعت درجته وعلا قدره قد يختار شيئاً وتكون الخيرة والمصلحة في غيره** "[٢]

إنَّ أمور العباد كلَّها لله سُبحانه وتَعالَى يَفعَلُ ما يَشاءُ، والعبد مأمور بأن يبلغ دين ربه وليس له إلا ما أُمِر به، وعليه أن يحذر **من إساءة الأدب مع ربه** أو منازعة الله في حكمه.

وأما التسليم بالقدر فهو قرين التسليم للشرع الحكيم، ولا يتم إيمان المسلم حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن كل شيء بقضاء الله وقدره، كما قال

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الجهاد والسير باب غزوة أحد برقم (١٧٩١).

(٢)تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن للسعدي (١٤٧).

سبحانه ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ القمر(٤٩). وقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ الأحزاب (٣٨).

قال ابن القيم رحمه الله: "النبي ﷺ أرشد الأمة في القدر إلى أمرين هما سببا السعادة: الإيمان بالأقدار فإنه نظام التوحيد.

والإتيان بالأسباب التي توصل إلى خيره وتحجز عن شره وذلك نظام الشرع، فأرشدهم إلى نظام التوحيد والأمر؛ فأبى المنحرفون إلا القدح بإنكاره في أصل التوحيد، أو القدح بإثباته في أصل الشرع، ولم تتسع عقولهم التي لم يلق الله عليها من نوره للجمع بين ما جمعت الرسل جميعهم بينه وهو القدر، والشرع والخلق والأمر، وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم "[1]

إن تسليم المؤمن بما قدّر الله تعالى لابد أن ينطلق من إيمانه بأن القدر سرّ الله في خلقه، وهذا يقتضي أنه لا يمكن إدراك كل حكمة أو تعليل لما يقدر الله في خلقه، بل غاية ذلك الإيمان والتسليم بأن الله تبارك وتعالى:﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ الأنبياء(٢٣)، وكذا اليقين التام بأن الله تعالى مقدر الأقدار هو أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وهو العليم الخبير وأنه سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ يونس(٤٤)، وأفعاله سبحانه كلها عدلٌ مطلق، وأما العبد فنظره للأقدار قاصر ومحدود بحدود عقله الناقص الذي يستحيل مع نقصه إدراك سر القدر لأنه من عالم الغيب الذي اختص الله تعالى به نفسه دون خلقه.

إن المؤمن بأنَّ كلَّ شيء يسير في هذ الكون لا يخرج عن تقدير الله تعالى طرفة عين، وأنه محاط بكمال أفعال الله تعالى من العدل والرحمة والحكمة ليَمْنَعهُ إيمانه **من إساءة الأدب** مع أقدار ربه، فضلاً أن يقترح على ربه شيئاً، وهو بعيدًا كل البعد عن الجزع أو الاعتراض، بل يُسلّم بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وهو سبحانه قد علم الأشياء قبل وقوعها، ثم كتبها، ثم شاءها ثم خلقها قبل أن يخلق الخليقة بخمسين ألف سنة.

إن من عبودية الأدب مع الله تعالى التسليم بما قدره الله تعالى من الأرزاق والأقوات على عباده وفق حكمته وعلمه، وأنه يبسط الرزق لبعض عباده ويقبضه عن آخرين، فيحمله هذا **الأدب** على سلامة الصدر لإخوانه المؤمنين فلا يجد في قلبه غلاً للذين آمنوا، بل يحبّ لنفسه ما يحب لإخوانه في الإيمان وذلك لعلمه بأن آفة الحسد سوء أدب، واعتراض على المنعم المتفضل على عباده.

---

(١)شفاء العليل لابن القيم (١/ ٢٦).

وأما العبد الذي أدبه إيمانه بأقدار ربه، فقد حسُن ظنه بربه، وعلم أن أرزاق الله تعالى لا تخرج عن حكمته وكمال عدله ورحمته، فيرضى ويسلم بأن الله تبارك وتعالى مالك الملك والعباد والأرزاق لا تخرج عن ملكه وتدبيره القائل سبحانه: ﴿قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ آل عمران (٢٦-٢٧)، فأحسَن الظنّ بربه وبذل الأسباب المشروعة لنيل فضله ورحمته، فسأل الله تعالى من خير الدنيا والآخرة، ووكل أمره لربه وصدق في اعتماد قلبه على ربه مع تمام الرضا والتسليم.

المبحث الثاني: الأدب في توحيد الربوبية.

إن من أعظم حقوق الرب سبحانه وتعالى على خلقه إفراده تبارك وتعالى بما اختص به من أفعال كالخلق، والملك، والتدبير، والرزق، والإحياء والإماتة، ومطلق النفع والضر، وعلم الغيب ونحو ذلك من خصائص ربوبيته، وإن من أعظم الظلم أن يشرك العبد مع الله تعالى غيره من خلقه في هذه الحقوق الخاصة له سبحانه وتعالى، ومن فعل ذلك فقد أساء لنفسه، ونقص حق ربه، ولم يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً، بيد أنّ بعض هذه الأفعال إذا مثلناها في علاقاتنا بالخلق -ولله المثل الأعلى- تُذكرنا بأن في ذلك سوء أدب لا يرضاه العاقل في تعامله مع الناس، وعند التذكير وضرب الأمثال يتبين قبح ذلك العمل، ولعله يكون زاجراً عن سوء الأدب في انتقاص حق الخالق بالتوحيد، فهو سبحانه أحقّ من المخلوق ولاريب .

وسأذكر في المطالب التالية ومطالب المبحث الذي يليه بعضًا من الأمثلة والنماذج التي تبين لي فيها عبودية الأدب لله تعالى في إفراده بالتوحيد، والله تعالى وحده المسؤول أن يرزقني السداد والهدى.

المطلب الأول: الأدب في نسبة النعم وشكر المنعم.

إن الله تبارك وتعالى هو ربُّ النعم وخالقها، وهو المنعم المتفضل القائل في كتابه سبحانه وتعالى:﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ النحل (٥٣)، وهو القائل سبحانه:﴿ إِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ النحل(١٨)، وهو القائل سبحانه وتعالى:﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ لقمان(٢٠).

وقال تعالى مبيناً حال من يجحد النعم ولا ينسبها الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ النحل (٨٣).قال ابن كثير" يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك ،

وهو المتفضل به عليهم ، ومع هذا ينكرون ذلك ، ويعبدون معه غيره ، ويسندون النصر والرزق إلى غيره"[١].

فمن عبودية الأدب نسبة النعم إلى الله تعالى المنعِم وشكره عليها، ولقد كان لنا أسوة حسنة في صفوة خلقه من أنبيائه عليه الصلاة والسلام يقول الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ النحل(١٢٠-١٢١).

فإبراهيم عليه السلام، كان أمة وحده، وكان ينسب النعم إلى المنعِم سبحانه، فكان إبراهيم عليه السلام شاكرا لله، ولذلك لما رأى من زوجة ابنه الجحود، وعدم الرضا، أمره بتطليقها.

وهذه القصة ذكرت في الحديث الصحيح، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وفيها أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما زار ابنه إسماعيل ولم يجده في بيته، فسأل أهله عن حالهم فقالت امرأة إسماعيل:(نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ، فَشَكَتْ إِلَيْهِ، قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلاَمَ، وَقُولِي لَهُ، يُغَيِّرُ عَتَبَةَ بَابِهِ...فَطَلَّقَهَا اسماعيل، وتزوَّج بأُخْرَى شاكرة لنعم الله معترفة بفضله سبحانه فلما سألها إبراهيم عن عيشهم قالت:(نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ، وَأَثْنَتْ عَلَى اللَّهِ(وقد نالت دعاء إبراهيم لهم بالبركة وقد أوصاها بقوله:

(فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلاَمَ وَمُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ) لَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: ذَاكِ أَبِي وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ"[٢] .

لأن الاعتراف بالنعم لله سبحانه هو طريق شكرها بل وبقائها وزيادتها قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ إبراهيم(٧) .

والعبد الموحّد لا يزيده كثرة إنعام الله عليه إلا زيادة الشكر، والاعتراف بفضل ربه سبحانه وتعالى عليه

حتى لو ملك الدنيا كلها، فهذا سليمان عليه السلام رزقه الله ملكاً لم يكن لأحد من بعده، وقد حكى الله عنه أدبه مع ربه في شكر نعمَه، قال الله تعالى عنه: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ النمل(٤٠).

---

(١)تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤ / ٥٩٢) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء صلوات الله عليهم ، باب يزفون : النسلان في المشي برقم (٣٣٦٤).

ولما كثرت عليه نعم الله، وتعددت آلاؤها عليه، ابتهل إلى ربه داعياً أنه يلهمه شكرها، قائلا: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ النمل (١٩).

وخير من ذلك نبينا محمد ﷺ الذي كان عيشه كفافاً، وكان فضل الله عليه عظيماً باصطفائه على سائر خلقه، فكان عظيم الأدب مع ربه معترفاً بفضل ربه عليه، وكان يطيل الصلاة طولا لا يقدر عليه غيره، ويريد بإطالتها شكر الله تعالى على ما هداه وحباه وأعطاه؛ كما في حديث عائشة رضي الله عنها:(كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: أَفَلا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا)[1].

وذلك لأن حقيقة الشكر تصديقه بالعمل وذلك "أن شكر العبد هو: إقراره بأن ذلك من الله دون غيره، وإقرار الحقيقة: الفعل، ويصدقه العمل، فأما الإقرار الذي يكذبه العمل، فإن صاحبه لا يستحق اسم الشاكر بالإطلاق، ولكنه يقال شكر باللسان "[2].

ولقد حذرنا ربنا من نسبة النعم لغير المنعم المتفضل سبحانه وتعالى، وجعل قارون هو أسوة من أساء الأدب مع ربه، ونسب النعم إلى نفسه، ونسي فضل ربه، فقال عن قارون الشقي:﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ سورة القصص(٧٨) .

إن من طبيعة النفس البشرية أن تمقت جاحد النعمة ولو كانت يسيرة، فمن أسدى معروفاً إلى إنسان ثم جحد فضله، وزاد على ذلك بأن نسب نعمته لغيره من الناس! لكان ذلك كافياً بأن يمنع عطاءه عنه ويتهمه بسوء الأدب! فكيف يليق ذلك مع مسبغ النعم الظاهرة والباطنة سبحانه وتعالى، فمن أراد أن يحقق عبودية ربه فلا يغفل عن الاعتراف بفضله في كل حال، وفي هذا الأدب العظيم يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "الواجب على الخلق إضافة النعم إلى الله قولاً، واعترافاً، وبذلك يتم التوحيد ، فمن أنكر نعَم الله بقلبه ، ولسانه : فذلك كافر ، ليس معه من الدين شيء، **ومَن أقر بقلبه أن النعَم كلها من الله وحده ، وهو بلسانه تارة يضيفها إلى الله ، وتارة يضيفها إلى نفسه ، وعمله ، وإلى سعي غيره.. فهذا**

(١) متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التفسير باب سورة الفتح برقم (٤٨٣٧)، أخرجه مسلم في "صحيحه"، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العباد برقم (٢٨٢٠).

(٢)شرح صحيح البخاري لابن بطال " (١٠ / ١٨٣- ١٨٤).

يجب على العبد أن يتوب منه، وألا يضيف النعم إلا إلى موليها، وأن يجاهد نفسه على ذلك، ولا يتحقق الإيمان، والتوحيد إلا بإضافة النعَم إلى الله، قولاً، واعترافاً."[١]

إن هذا الاعتراف بإنعام الله تعالى وشكره سبحانه هو من **مظاهر حسن الأدب مع الله تعالى**، وهو من بواعث العبودية الحقة التي تظهر بعد افتقار العبد إلى ربه وتبرؤوه من حوله وقوته، وكلما ارتقى العبد في مراقي العبودية لله تعالى ازداد أدباً وتواضعاً لربه وهضم نفسه في ذات الله تعالى، وقد كان السلف الصالح ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية الذي أسبغ الله عليه نعمة العلم، ونفع الله به خلقاً كثيراً وقمع به رؤوس الكفر والزندقة والمبتدعة.. كان لا ينسب لنفسه شيئاً، ولا يرى نفسه شيئاً، وينسب كل خير لربه، يقول ابن القيم رحمه الله عنه: "فلا شيء أنفع للصادق من التحقق بالمسكنة والفاقة والذل، وأنه لا شيء، وأنه ممن لم يصح له بعد الإسلام حتى يدّعي الشرف فيه، ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية –قدس الله روحه– من ذلك أمرا لم أشاهده من غيره، وكان يقول كثيرا: ما لي شيء، ولا مني شيء، ولا فيّ شيء.. وكان إذا أثني عليه في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعدُ إسلاماً"[٢].

إن الاعتراف بفضل الله المنعم، وشكر النعم بتسخيرها في طاعته ورضوانه، هو حال كل عبد موحّد يستحي من ربه وخالقه حق الحياء، ويحرص على مكافأة مخلوق على معروفه الذي أجراه الله على يده وجعله الله سببًا في حصول النعمة، فلا ريب أنه أحرص على الاعتراف، ونسبة النعمة إلى مالك النعم كلها ومسديها سبحانه وتعالى، ولذا كان من اعتاد إساءة الأدب مع الناس وجحد نعمتهم ولم يشكرهم على معروفهم بما يستطيع، كان من عادته إساءة الأدب مع ربه، وكفر نعمة الله وترك الشكر، والمُنعم المتفضل على الحقيقة هو اللهُ تبارك وتعالى وقد دل على ذلك حديث النبي ﷺ :(لا يَشْكُرُ اللهَ مَن لا يَشْكُرُ الناسَ)[٣].

المطلب الثاني: الأدب في نسبة الخير إلى الله، وإضافة الشر إلى غيره.

لقد كان نبينا ﷺ أعلم الناس بربه، وأعظمهم أدباً معه سبحانه، ومن أدبه ﷺ كثرة الثناء والمدح لله تبارك وتعالى، لعلمه ﷺ أن الله تعالى يحب المدح وهو سبحانه أهل لذلك، والله تعالى غني عن العالمين وفي مدحه سبحانه بما هو أهله عوناً على عبادته والتعريف بقدره وعظمته.

(١) القول السديد في مقاصد التوحيد للشيخ عبد الرحمن السعدي (١٤٠).

(٢) مدارج السالكين (٥٢٠/١).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٨١١)، وأحمد (٧٩٣٩) واللفظ لهما، والترمذي (١٩٥٤) باختلاف يسير، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم:(٤٨١١).

فعَنْ عبداللّه بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: (ولا شيء أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللهِ، ولذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ)(١) ، قال النووي:" حَقِيقةُ هذا مصلحة للعبَاد ، لأنّهُمْ يُثْنُونَ عليه سُبحانهُ وتعالى فيُثيبهُم فَينتَفعُون، وهو سبحانهُ غَنِيٌّ عن الْعَالَمِينَ ، لا يَنْفَعُهُ مدحُهُم، ولا يَضُرُّهُ تَرْكُهُمْ ذَلِكَ "(٢) .

ومن ذلك الأدب ثناء النبي ﷺ على الله تعالى في دعائه، وإضافة الخير إليه سبحانه دون الشر، كقوله ﷺ: (وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أنا بكَ وإليك، تباركتَ وتعاليت) (٣).

قال النووي:" قَالَ الْخَطَّابِيُّ وَغَيْره: فِيهِ الإِرشَاد إِلَى الأَدَب فِي الثَّنَاء عَلَى اللَّه تعالى، وَمَدْحه بِأَنْ يُضَاف إِلَيْهِ مَحَاسِن الأُمُور دُون مَسَاوِيهَا عَلَى جِهَة الأَدَب "(٤).

ومن تأمل القرآن الكريم وجد حكاية أساليب الأدب مع الله سبحانه وتعالى ظاهرة في نسبة الخير دون الشر إلى الله تبارك وتعالى أدباً معه سبحانه وتعالى.

يقول ابن القيم رحمه الله تأكيداً لذلك:" الطريقة المعهودة في القرآن الكريم هي أن أفعال الإحسان والرحمة والجود تضاف إلى الله سبحانه وتعالى، فيذكر فاعلها منسوبة إليه ولا يبني الفعل معها للمفعول ، فإذا جيء بأفعال العدل والجزاء والعقوبة حذف وبني الفعل معها للمفعول **أدبًا** في الخطاب، وإضافته إلى الله تعالى أشرف قسمي أفعاله، فمنه قوله تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ .."(٥).

وفي قوله تبارك تعالى عن الخضر: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ الكهف (٧٩)

" أضاف عيب السفينة إلى نفسه **رعاية للأدب**؛ لأنها لفظة عيب فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلا إلى نفسه، كما **تأدب** إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ فأسند الفعل قبل وبعد إلى الله تعالى، وأسند إلى نفسه المرض، إذ هو معنى نقصى ومصيبة، فلا يضاف إليه سبحانه وتعالى من الألفاظ إلا ما يستحسن منها دون ما يستقبح، وهذا كما قال

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه"، كتاب التفسير باب سورة الأنعام برقم (٤٦٣٤) واللفظ له، وأخرجه مسلم في "صحيحه"، كتاب: التوبة باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش برقم (٢٧٦٠).

(٢)المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للإمام النووي (١٧/ ٧٧).

(٣)أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب : المساجد ومواضع الصلاة باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه برقم (٧٧١).

(٤) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للإمام النووي (٥٩/٦)

(٥) بدائع الفوائد لابن القيم (٢٥٦/٢).

تعالى:﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ واقتصر عليه فلم ينسب الشر إليه، وإن كان بيده الخير والشر والضر والنفع ، إذ هو على كل شيء قدير"(١).

وقال ابن كثير:" وقوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أسند المرض إلى نفسه ، وإن كان عن قَدَر الله وقضائه وخلْقه ، ولكن أضافه إلى نفسه **أدباً**"(٢).

وقال الشيخ ابن باز رحمه الله: "وهذا من جنس قول الجن في سورة الجن، حيث قال سبحانه عن الجن : ﴿ وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ الجن(١٠) ، فالشر لم يضيفوه إلى الله سبحانه وتعالى، ولما جاء الرشد قالوا:﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ فنسبوا الرشد إلى الله سبحانه وتعالى ، لأن الرشد خير فنسبوه إلى الله ، وأما الشر فلا ينسب إليه "(٣).

إنّ كلَّ عبدٍ صالح معظم لربه، حريص على حسن الأدب أثناء حديثه عن ربه، وأحسن الهدي في ذلك اتباع طريقة النبي ﷺ والأنبياء والصالحين، وذلك له أثر عظيم في استقامة القلب ومعرفة حق الرب تبارك وتعالى، وهو من مجمل حسن الخلق مع الرب سبحانه المعين على طاعته، والله تعالى يحب من عباده أن يطيعوه ويفردوه بالعبادة ولا يكفروه.

وتدل النصوص السابقة أن من الأدب مع الله تعالى وجوب تنزيهه تبارك وتعالى عن نسبة الشر، أو كل سوء، وإن كان الجميع قد وُجد بتقدير الله تعالى وخلقه، وأن المخلوق إذا كان يتحرى في حديثه مع ذوي الهيئات والمقامات من العباد، فإن رب العباد سبحانه وتعالى أحقُّ بالتعظيم والعناية بانتقاء اللفظ اللائق بقدره سبحانه وعظمته، ومثل ذلك الأدب أن يتوقف العبد في حديثه وإخباره عن الله تبارك وتعالى وأفعاله إلا باللفظ الذي يليق به سبحانه مما ورد في النصوص فلا يجوز الإخبار عن الله تعالى بما يتضمن أو يوهم نقصاً أو مشابهة في المخلوق. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

" يُفَرّقُ بين دُعَائِه وَالإِخْبَارِ عنه، فَلا يُدْعَى إلا بالأسماء الحسنى؛ وأما الإخبَارُ عنهُ: فلا يكُونُ باسم سَيِّئٍ؛ لكن قد يَكُونُ بِاسْمٍ حَسَنٍ، أو بِاسم ليس بِسَيِّئٍ وَإِنْ لَمْ يُحْكَمْ بِحُسْنِه، مِثْلَ اسْمِ شَيْءٍ وذَاتٍ وَمَوْجُودٍ "(٤).

ففي جانب الإخبار عن أفعال الله تبارك يلزم المؤمن التحري في اختيار اللائق به سبحانه، لأن باب أفعال الله أوسع من اسمائه، قال ابن القيم رحمه الله: " ولهذا أَطلق الله على نفسه

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١١ / ٣٩-٤٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦ / ١٤٦).
(٣) فتاوى نور على الدرب للإمام ابن باز رحمه الله (١ /١٠٩-١١١).
(٤)مجموع الفتاوى لابن تيمية (٦/ ١٤٢).

أفعالاً لم يتسمِّ منها بأسماء الفاعل كأراد وشاء وأحدث، ولم يُسمِّ بـ " المريد " و" الشائي " و"المُحدث ".. وغير ذلك من الأسماء التي أطلق على نفسه، فباب الأفعال أوسع من باب الأسماء"(١).

وأما أسماء الله الحسنى وصفاته العلى التي وردت في الشرع مقترنة بنظيرها فمن الأدب مع الله تعالى ألا تطلق على الله تعالى مفردة لكيلا توهم نقصاً قال ابن القيم رحمه الله: " إن أسماءه تعالى منها ما يطلق عليه مفردا ومقترناً بغيره.. ومنها ما لا يطلق عليه بمفرده، بل مقرونا بمقابله كالمانع والضار والمنتقم، فلا يجوز أن يفرد هذا عن مقابله، فإنه مقرون بالمعطي والنافع والعفو، فهو المعطي المانع الضار النافع.. لأن الكمال في اقتران كل اسم من هذه بما يقابله، عطاء ومنعا، ونفعا وضرا.. لأنه يراد به أنه المنفرد **بالربوبية** وتدبير الخلق والتصرف فيه؛ وأما أن يثنى عليه بمجرد المنع والانتقام والإضرار فلا يسوغ.. فهذه الأسماء المزدوجة تجري مجرى الاسم الواحد الذي يمتنع فصل بعض حروفه عن بعض، ولذلك لم تجيء مفردة ولم تطلق عليه إلا مقترنة فاعلمه"(٢).

وإن مما يسوء المؤمن ما يسمعه من بعض الناس حين يتحدث عن ربه بأسلوب يشابه حديثه عن المخلوقين! أو ينسب لربه أفعالاً تنافي عظمته، أو يتحدث عن ربه بكلام كأنه يتحدث عن صديقه، أو أحد الناس! وهذه الأساليب تكثر –مع بالغ الأسف– في بعض مقطوعات الشعر أوما يسمى بنصوص الأدب التي ينبغي أن تراعي الأدب مع رب العالمين المستحق لحسن الأدب، وإلا فإنها لا تستحق أن توصف بذلك.

المبحث الثالث: الأدب في توحيد العبادة.

المطلب الأول: الأدب في اتباع سنة نبينا ﷺ.

إن من لاَزِم الأدب مع الله تبارك وتعالى في توحيد العبادة الأدب مع نبيه ﷺ المبلِّغ عن الله تبارك وتعالى،

لأن العمل الصالح لا يمكن أن يقبل من العبد إلا إذا كان خالصاً لله متبعاً لسنة نبينا ﷺ، واتباع السنة يلزم منه الأدب مع النبي ﷺ ومع سنته وشرعه الذي جاء به من ربنا تبارك وتعالى، والنصوص الشرعية ظاهرة في لزوم الأدب مع النبي ﷺ، وجماع ذلك كمال الانقياد والقبول لما جاء به النبي ﷺ والتسليم والطاعة والتصديق، ولذلك الأدب معالمُ مهمةٌ؛ منها ألا يتقدّم العبد على الله تعالى وعلى نبيه ﷺ في حياته وعلى شرعه بعد مماته ﷺ، ومنها الحذر من رفع

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٣/ ٤١٥) .
(٢) بدائع الفوائد (١/١٣٢).

الصوت عند رسول الله ﷺ ..ونحوها من الآداب العظيمة التي اشتملت عليه سورة الحجرات قال تبارك وتعالى في سورة الحجرات:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ الحجرات(١– ٥).

وهذه السورة الكريمة اشتملت على **الأدب** مع الله ورسوله ﷺ ثم الأدب مع المؤمنين في علاقاتهم، مما يدل على أن من **تأدب** مع ربه تعالى ومع نبيه ﷺ فلابد أن يتأدب مع إخوانه المؤمنين لأن الأدب مع الله ورسوله ﷺ يلزم منه اتباع شرعه وهدي نبيه ﷺ وامتثال أوامره والاقتداء بأخلاقه ﷺ التي هي أحسن الأخلاق وأعظمها أدباً مع الجميع.

قال ابن كثير في آيات سورة الحجرات: "هَذِهِ آيات **أَدَّبَ** الله تعالى بها عباده المؤمنين فِيمَا يُعَامِلُونَ بِهِ الرَّسُولَ ﷺ مِنَ التَّوْقِيرِ وَالاحْتِرَامِ وَالتَّبْجِيلِ وَالإِعْظَامِ.. أَيْ: لا تُسْرِعُوا فِي الأَشْيَاءِ بَيْنَ يَدَيْهِ، أَيْ: قَبْلَهُ، بَلْ كُونُوا تَبَعًا لَهُ فِي جَمِيعِ الأُمُورِ"(١).

وقال السعدي رحمه الله: "هذا متضمن للأدب، مع الله تعالى، ومع رسول الله ﷺ، والتعظيم له، والاحترام له، وإكرامه، فأمر الله عباده المؤمنين، بما يقتضيه الإيمان، بالله وبرسوله، من امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وأن يكونوا ماشين خلف أوامر الله، متبعين لسنة رسول الله ﷺ، في جميع أمورهم، وأن لا يتقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا يقولوا حتى يقول، ولا يأمروا حتى يأمر، فإن هذا حقيقة الأدب الواجب، مع الله ورسوله، وهو عنوان سعادة العبد وفلاحه.. وفي هذا النهي الشديد عن تقديم قول غير الرسول ﷺ على قوله، فإنه متى استبانت سنة رسول الله ﷺ وجب اتباعها، وتقديمها على غيرها، كائنا ما كان."(٢)

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم أعظم الناس أدباً مع رسول الله وسنته ﷺ فقد كانوا يجلون النبي ﷺ ويوقرونه لتعظيمهم لربهم ولشرعه، وقد كان عمرو بن العاص رضي الله

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٤٠/٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبدالرحمن السعدي (٧٩٩) .

عنه يقول: (مَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلأَ عَيْنَيَّ مِنْهُ إِجْلالا لَهُ، ولَوْ سُئلتُ أن أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ، لأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَملأ عَينَيَّ منْهُ)(١)

وأعظم صور أدبهم رضوان الله عليهم تعظيمهم لسنته ﷺ، وقد تربى أصحاب النبي ﷺ على هذه الآداب العظيمة في امتثال شرع الله تعالى والحكم به واتباع سنته، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" كَان بعضُ النَّاسِ يُنَاظِرُ ابنَ عبَّاس في الْمُتْعَة–في الحج– فَقَال لَهُ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ.. فَقَالَ ابْنُ عبَّاس: " يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنْ السَّمَاءِ! أَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَقُولُونَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟ "(٢)

فالشاهد هنا أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يقصد اتباع محض الدليل، وعدم مخالفته بتقديم رأي أو فعل أحد من الصحابة فمن دونهم من أهل العلم من باب أولى، لأن ابن عباس حبر هذه الأمة وعالم قادر على استنباط الدليل والاستدلال، وأما العامي وغير العالم فإنما يكفيهم سؤال العلماء، واتباع ما يفتونهم به من سنة نبينا ﷺ؛ كما أمر الله عباده بذلك.

قال ابن عثيمين رحمه الله:" لا يجوز لأحد من الناس أن يعارض كلام الرسول ﷺ بأي كلام، لا بكلام أبي بكر الذي هو أفضل الأمة بعد نبيها، ولا بكلام عمر الذي هو ثاني هذه الأمة بعد نبيها، ولا بكلام عثمان الذي هو ثالث هذه الأمة بعد نبيها، ولا بكلام علي الذي هو رابع هذه الأمة بعد نبيها، ولا بكلام أحد غيرهم؛ لأن الله تعالى يقول:

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾"(٣)

وهذا والله من أعظم الآداب مع سنته ﷺ وهو نابع من تعظيم النبي ﷺ وتعظيم الله تعالى، قال ابن القيم رحمه الله:" وأمَّا الأَدَبُ مع الرَّسُول ﷺ فالقُرآنُ مملُوءٌ به، فرأس الأدب معه: كمال التَّسْلِيمِ له، والانقيادُ لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتَّصْدِيقِ، دون أن يُحَمِّلَهُ مُعَارَضَةَ خيال باطل، يسميه معقولا! أو يُحَمِّلَهُ شُبْهَةً أَوْ شَكًّا، أو يُقَدِّمَ عليه آراء الرجال، وزُبالاتِ أذهانهم، فَيُوَحِّدُهُ بالتحكيم والتسليم، والانقياد والإذعان، كما وحّد المرسلَ سُبحانه وتعالى بالعبادة والخضوعِ والذل، والإنابة والتوكل فَهُمَا تَوْحِيدَانِ لا نَجَاةَ لِلْعَبْدِ مِنْ عَذَابِ اللّهِ إلا بِهِمَا: تَوْحِيدُ الْمُرْسِلِ، وَتَوْحِيدُ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ"(٤). ﷺ

وأما الاقتراح أو الابتداع، أو الاعتراض أو الاشتغال في معرفة العلل والغايات من الشرع فلا يستقيم من قلبٍ رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً رسولاً، ومن الاستنباط

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب : الإيمان باب كون الإسلام يهدم ما قبله برقم (١٢١).
(٢)مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢١٥).
(٣)مجموع فتاوى ورسائل العثيمين" (٥/ ٢٤٩).
(٤) مدارج السالكين (٢/٣٦٥).

الجميل الذي ذكره ابن القيم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ النور (٦٢) قوله:" فإذا كان هذا مذهبًا مُقَيِّدًا بِحَاجَةٍ عَارِضَةٍ، وَلَمْ يُوَسِّعْ لَهُمْ فِيهِ إلا بِإِذْنِهِ فَكَيْفَ بِمَذْهَبٍ مُطْلَقٍ في تَفَاصِيلِ الدِّينِ: أُصُولِهِ، وَفُرُوعِهِ، دَقِيقِهِ، وَجَلِيلِهِ؟ هَلْ يُشْرَعُ الذَّهَابُ إليه بدون استئذانه؟"(١).

وقد يكون فهم بعض الناس قاصراً وإدراكه ضعيف فعليه أن يتهم نفسه عندما يصعب عليه فهم حديث ثابت عن نبينا ﷺ ويحذر من معارضته برأيه أو اجتهاده أو اقتراحه.

"ومن الأدب معهُ: أَنْ لا يُسْتَشْكَلَ قَوْلُهُ ﷺ بَلْ تُسْتَشْكَلُ الآرَاءُ لِقَوْلِهِ ﷺ، ولا يُعارضُ نَصُّهُ بِقِيَاسٍ بَلْ تُهْدَرُ الأَقْيِسَةُ وَتُلْقَى لِنُصُوصِهِ، ولا يُحَرَّفُ كَلامُهُ عَنْ حَقِيقَتِهِ لِخَيَالٍ يُسَمِّيهِ أَصْحَابُهُ مَعْقُولا، نَعَمْ هُوَ مَجْهُولٌ، وَعَنِ الصَّوَابِ مَعْزُولٌ، وَلا يُوقَفُ قَبُولُ مَا جَاءَ بِهِ ﷺ عَلَى مُوَافَقَةِ أَحَدٍ، فَكُلُّ هَذَا مِنْ قِلَّةِ الأَدَبِ مَعَهُ ﷺ، وَهُوَ عَيْنُ الْجُرْأَةِ."(٢).

إن الأدب مع النبي ﷺ ومع شرعه هو من مقتضى عبودية الأدب مع الله تبارك وتعالى، ولن تستقيم العبودية لله رب العالمين حتى يعظم العبد نبيه ﷺ ويسلم لما جاء به، وينتهي لما نهى عنه ﷺ ويحيط ذلك بالأدب الذي أمر الله تعالى به وامتثل له صحابة رسول الله ﷺ رضوان الله عليهم أجمعين.

المطلب الثاني: الأدب في أعظم العبادات؛ الصلاة المفروضة.

إن العبادة هي الغاية من خلق الخلق، وهي التي ترفع العبد أو تخفضه عند ربه، فليس بيننا وبين الله تبارك وتعالى إلا عبادته، ومتى أحسن العبد في عبادته فليبشر بأن ربه أكرم الأكرمين وأجود معطي، يجازي عباده بالحسنة عشر أمثالها ويزيد الله ويضاعف لمن يشاء، ولذلك فإن إحسان العبادة منوط بإقامتها على الوجه اللائق بتعظيم المعبود سبحانه وتعالى، ومما يعين على إقامة العبادات مراعاة آدابها تأدباً مع المعبود سبحانه وتعالى وهو أعظم معبودٍ على الإطلاق.

وأعظم هذه العبادات هي الصلاة المفروضة لأنها الصلة العظمى بالله تبارك وتعالى وهي أحب الأعمال إليه سبحانه وهي التي أثنى الله على عباده في إقامتها وحقق لهم الفلاح فقال عز من قائل:﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)﴾ سورة المؤمنون (١-٢) ويتحقق الأدب في الصلاة بالتهيؤ لها قبل أدائها تعظيمًا لمن سيقف العبد يديه سبحانه وتعالى، وقد أمر الله تبارك وتعالى بذلك قائلاً:﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾الأعراف(٣١)

(١)المصدر السابق (٣٦٨/٢).

(٢)المصدر السابق (٣٦٨/٢).

قال ابنُ كثيرٍ رحمه الله في تفسيره: "ولهذهِ الآيةِ وما وَرَدَ في معناهـا مـن السُّنة: يُـستَحَبُّ التَّجَمُّل عنـد الصـلاةِ، ولا سيَّمَا يـومَ الجمعةِ ويـومَ العيدِ، والطِّيـبُ لأنـهُ مـن الزِّينَـةِ، والسِّواكُ لأنهُ من تَمَام ذلكَ"[1]

والزينة للصلاة **من الأدب مع الله تعالى** فيها وهي مما يعظم أجر المصلي لاسـيما إذا قـصد ذلك يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال ﷺ :(إذا صلَّى أحدُكم فلْيلبسْ ثَوبَيهِ فإنَّ اللَّـهَ أحقُّ من يزَّيَّنُ لهُ)[2]

وقال نَافِع غلام ابن عمر رضي الله عنهما: رَآنِي ابْنُ عُمَرَ أُصَلِّي فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ فقال: (أَلَـمْ أَكْسكَ ثَوْبَيْنِ؟)، فَقُلْتُ: بَلَى، قَالَ: (أَرَأَيْتَ لَوْ أَرْسَلْتُكَ إِلَى فُلَانٍ أَكُنْتَ ذَاهِبًا فِي هَـذَا الثَّـوْبِ؟)، فَقُلْتُ: لا، فَقَالَ: (اللَّهُ أَحَقُّ مَنْ تَزَيَّنُ لَهُ أَوْ مَنْ تَزَيَّنْتَ لَهُ)[3]

والزينة في الصلاة للرجل تشمل ما تعارف عليه الناس من التزين الذي لا يخرج عن المبـاح، وأما المرأة فزينتها في الصلاة بقدر ستر عورتها المـشروع سـترها ونحوهـا مـن الزينـة المشروعة في بيتها كطيب الرائحة، وستر العورة وهو من عموم الأدب مـع الله تعـالى فـي الصلاة.

قال ابن القيم: "فإنّ ستر العورة من الأَدَبِ، والوضوء وَغُسْلَ الجَنَابَةِ من الأَدَبِ، وَالتّطَهُّرَ مِـنَ الْخُبْثِ مِنَ الأَدَبِ، حَتّى يَقِفَ بَيْنَ يَدَيِ اللّهِ طَاهِرًا، وَلِهَذَا كَانُوا يَسْتَحِبُّونَ أَنْ يَتَجَمّلَ الرّجُلُ فِـي صَلاتِهِ. لِلْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ.. وكانَ لبعض السّلَف حُلّةٌ بمبلغٍ عَظِيمٍ مِنَ الْمَالِ، وَكَانَ يَلْبَـسُهَا وَقْتَ الصّلاةِ .ويَقُولُ: رَبِّي أَحَقُّ مَنْ تَجَمّلْتُ لَهُ فِي صَلاتِي"[4].

ومن الأدب مع الله المبادرة في الصلاة في أول وقتها وهو المقصود في الحديث، لأن المبادرة في الصلاة دليل إقبال القلب على الله تعالى وتعلق القلب بالصلاة وهو عمل يحبـه الله تبـارك وتعالى ويثيب عليه، ولذا لما سأل ابن مسعود رضي الله عنه النبي ﷺ عن أحب الأعمال إلـي الله تعالى–كعادة الصحابة وحبهم لما يحب ربهم– فقال النبي ﷺ:" **الصَّلاةُ علَى وقْتِها**"[5].

قال ابن باز في هذا الحديث: "على وقتها أول الوقت، لكن إذا صلاها في أثناء الوقـت أو فـي آخر الوقت صحت، ولا إثم عليه، لكن كونها يصليها في أول الوقت كما فعل النبي ﷺ **يراعـي أوائل الأوقات هذا هو الأفـضل**، إلا في مسائل مستثناة: كمسألة شدة الحر في الظهر، الابـراد

(١)تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: (٣/ ٤٠٦).

(٢) أخرجه البزار (٥٩٠٣)، والطحاوي في (شرح معاني الآثار) (٢٢١٨)، والطبراني في (المعجم الأوسط) (٩٣٦٨)، والبيهقي (٣٣٩٧) وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٤/٢).

(٣)أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في مصنفه، كتاب الصلاة– بَابُ مَا يَكْفِي الرَّجُلَ مِنَ الثِّيَابِ: (١/ ٣٥٨)، برقم (١٣٩١).

(٤) مدارج السالكين (٣٦٣/٢).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها برقم (٥٢٧).

بها أفضل، وكالعشاء إذا لم يجتمعوا شرع له أن يراعيهم حتى يجتمعوا، كما قال جابر: كان النبي إذا رآهم اجتمعوا عجل، وإذا رآهم أبطؤوا أخر، يعني في العشاء.. **وإلا فالأصل مراعاة أول الوقت**، لكن مراعاة أول الوقت مع مراعاة وقت يتسع للوضوء وقضاء الحاجة، يعني بعد أول الوقت بربع ساعة بنصف ساعة؛ لمراعاة هذا الشيء الذي يتمكن منه الناس للوضوء والحضور للمسجد"[١].

ومن التأدب مع الله تبارك وتعالى في هذه الشعيرة العظيمة أن يُقبِل العبدُ على صلاته مخبتاً إلى ربه، خاشعاً في صلاته، لاسيما إذا تذكر أنه يقف بين يدي العظيم سبحانه وتعالى.

قال ابن القيّم:" سمعت شيخ الإسلام ابن تيميّة يقول: **من كمال أدب** الصّلاة أن يقف العبد بين يدي ربّه مطرقا خافضا طرفه إلى الأرض، ولا يرفع بصره إلى فوق"[٢].

ومن الأدب مع الله في العبادة: السّكون في الصّلاة، وهو الدّوام الّذي قال الله تعالى فيه ﴿الّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ﴾ المعارج (٢٢). سئل عقبة ابن عامر عن قوله تعالى ﴿الّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ﴾ أهم الّذين يصلّون دائما؟ قال: لا، ولكنّه إذا صلّى لم يلتفت عن يمينه ولا عن شماله ولا خلفه.

قلت– ابن القيّم– هما أمران: الدّوام عليها والمداومة عليها. فهذا الدّوام، والمداومة في قوله تعالى ﴿وَالّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ﴾ وفُسّر الدّوام بسكون الأطراف والطمأنينة، وأدبه في استماع القراءة: أن يلقي السّمع وهو شهيد، والمقصود: أنّ الأدب مع الله تبارك وتعالى: هو القيام بدينه والتّأدّب بآدابه ظاهرا وباطنا "[٣]

ومما يعين على حسن الأدب مع الله تعالى في موقف الصلاة العظيم أن يتذكر العبد عظمة من يقف بين يديه سبحانه وتعالى وأنه سبحانه قسم الصلاة بينه وبين عبده نصفين.

قال الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه:" سَمِعْتُ رَسولَ ﷺ يقولُ: قالَ اللَّـهُ تَعالَى: قَسَمْتُ الصَّلاةَ بَيْنِي وبيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، ولِعَبْدِي ما سَأَلَ، فإذا قالَ العَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّـهِ رَبِّ العالَمِينَ﴾، قالَ اللَّهُ تَعالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وإذا قالَ: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، قالَ اللَّهُ تَعالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وإذا قالَ: ﴿مالِكِ يَومِ الدِّينِ﴾، قالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، وقالَ مَرَّةً فَوَّضَ إلَيَّ عَبْدِي، فإذا قالَ: ﴿إيَّاكَ نَعْبُدُ وإيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قالَ: هذا بَيْنِي وبيْنَ عَبْدِي، ولِعَبْدِي ما سَأَلَ، فإذا

(١) الموقع الرسمي للإمام ابن باز :https://binbaz.org.sa/fatwas/٢٤١٣٢ /معنى-حديث-الصلاة-على-وقتها

(٢)مدارج السالكين (٢/٣٦٥).

(٣)المصدر السابق (٢/٣٦٥).

قالَ:﴿اهْدِنا الصِّراطَ المُسْتَقِيمَ صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عليهم غيرِ المَغْضُوبِ عليهم ولا الضَّالِّينَ﴾ قالَ: هذا لِعَبْدِي ولِعَبْدِي ما سَأَلَ"(١).

إن المؤمن ليخجل من ربه حين يستشعر هذا الحديث العظيم، ويستحضر هذا الكرم منه سبحانه لعبده المصلي الواقف بين يديه ويستحي أن يلتفت قلبه عن ربه في صلاته، فضلاً عن التفات بصره واختلاس شيء من صلاته، فيُحضر قلبه موقراً لربه **متأدباً** معه، فلا ينشغل فكره بالدنيا بل يتدبر ما يقرأ في صلاته، وحريٌّ بمن كانت هذه صفة صلاته أن يثبت على الاستقامة ويعظُمَ الله أجرَ صلاته، ويصلح الله له سائر أعماله، لأن الصلاة إذا صلحت صلح سائر العمل، نسأل الله من فضله.

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى بعض هيئات الأدب في حال القيام بالصلاة وكيف يؤثر تطبيق السنة في الصلاة على تعظيم قدرها وقدر من يقف العبد بين يديه، فذكر منها وضع اليد اليمنى على اليسرى حال قيام القراءة وقال عنه:" ففي الْمُوَطَّأ لِمَالِكٍ عَنْ سهل بن سعد أنه مِنَ السُّنّة، وَكَانَ النّاسُ يُؤْمَرُونَ بِهِ، وَلا رَيْبَ أَنّهُ مِنْ **أَدَبِ** الْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيِ الْمُلُوكِ وَالْعُظَمَاءِ. فَعَظِيمُ الْعُظَمَاءِ أَحَقُّ بِهِ."(٢)

وذكر ابن القيم رحمه الله أن من العبادات القلبية تعظيم الله في الركوع مع استصغار النفس تلك فقال:

"وأدبه فِي الرُّكُوعِ :أَنْ يَسْتَوِيَ. وَيُعَظِّمَ اللّهَ تَعَالَى، حَتّى لا يَكُونَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ أَعْظَمُ مِنْهُ، وَيَتَضَاءَلَ وَيَتَصَاغَرَ فِي نَفْسِهِ. حَتّى يَكُونَ أَقَلّ مِنَ الْهَبَاءِ." (٣).

ومن الأدب مع الله في الصلاة ما ذكره شيخ الإسلام من اللطائف عظيمة الأثر على قلب المؤمن من بعض الحكمة في نهي النبي ﷺ عن قراءة القرآن في السجود والركوع فقال:" إِنّ القُرآنَ هو أَشْرَفُ الكلامِ، وهو كلامُ اللّهِ، وحَالَتَا الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ حالتا ذُلٍّ وانخفاضٍ من العبدِ، **فمن الأَدَبِ** مَعَ كلام اللّهِ :ألا يُقْرَأَ فِي هاتينِ الحالتينِ، ويكُونَ حَالُ القيَامِ وَالانْتِصَابِ أَولَى بِهِ"(٤).

إن من الجدير بالذكر أن الصلاة هي عمود الدين ومن أحب العبادات إلى الله تعالى، فإذا أقامها العبد المؤمن وعظَّم ربه فيها وتأدّبَ معه ظاهراً وباطناً، نال خيراتها وبركة إقامتها،

(١)أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الصلاة باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة برقم (٣٩٥).
(٢)مدارج السالكين (٣٦٥/٢).
(٣) المصدر السابق (٣٦٥/٢).
(٤)مدارج السالكين (٣٦٥/٢).

وكان ذلك مؤثراً على **عباداته الأخرى** وسلوكه وعمله، وسائر شؤن حياته، وغمره نور الصلاة في قلبه، وجوارحه، ودنياه وآخرته.

المطلب الثالث: الأدب في الدعاء.

ثبت في الحديث الصحيح إن" **الدعاء هو العبادة** "[1] والدعاء جامع لمعاني العبادات الظاهرة والباطنة ففيه من معاني الانقياد الظاهر والباطن الشيء الكثير، والدعاء شاملٌ دعاء المسألة ودعاء العبادة المتضمن سائر العبادات، ولكن من تأمل دعاء المسألة وعظيم أثرهُ على العبد؛ يجد أنه مؤثرٌ تأثيرٌ بالغٌ على دعاء العبادة، فمن كان من أهل الدعاء الذين لازموه، وكان له ورداً دائماً في التضرع والإلحاح على الكريم سبحانه بخيري الدنيا والآخرة فإن الله تعالى لا يخيبه ولا يرده، لأنه وَعدَ عباده ووعدُه الحق سبحانه بالإجابة، فيوفقهم الله لصلاح العبادات ويهديهم سواء السبيل، لاسيما أن من جملة الأدعية المأثورة دعاء النبي ﷺ :

(اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ)[2].

قال المناوي :(اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري) أي: الذي هو حافظ لجميع أموري، فإن مَن فسد دينُه فسدت جميعُ أموره وخاب وخسر في الدنيا والآخرة."[3] لذا كان **الأدب** في الدعاء جماع كثير من الأدب في العبادات الأخرى، لأن من أهم آداب الدعاء أن يتواطأ فيه عبودية القلب واللسان التي هي أهم محرك وباعث لعبادة سائر الجوارح والله المستعان، وسأذكر أهم آداب الدعاء التي تتبعتها وما تتضمنه من معانٍ عظيمةٍ في الأدب مع الله تعالى، فمنها:

١) اظهار العبودية الخالصة لله تعالى في الدعاء.

إن من أحوال إظهار العبودية التي أمر الله تعالى بها التوسل إلى الله بأسمائه الحسنى و صفاته العلى في أول الدعاء أو آخره، قال تعالى:﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ الأعراف(١٨٠).ومما يُعين على اظهار العبودية استحضارُ فقرِ العبد لربه وحاجته له والتذلل لله تعالى، والانكسار بين يديه، والاعتراف بالحاجة إلى معونته، وأنه العبد الفقير الذي لا غنى له عن ربه طرفة عين، والربّ سبحانه هو الغني ذو الرحمة، وهو

(١)أخرجه الترمذي (٣٣٧٢) وأبو داود (١٤٧٩) وابن ماجه (٣٨٢٨) وصححه الألباني في "صحيح الترمذي" (٢٥٩٠).

(٢)أخرجه مسلم في "صحيحه"، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل برقم (٢٧٢٠).

(٣)فيض القدير للمناوي (٢ / ١٧٣).

يحب من عباده التقرب إليه بهذه الحالة من العبودية، ويسبغ عليهم نعيم القرب منه كلما ازدادوا ذلاً له وانكساراً بين يديه.

قال ابن القيم:" أكمل الخلق عبودية: أكملهم ذلاًّ لله، وانقياداً، وطاعة، والعبد ذليل لمولاه الحق بكل وجه من وجوه الذل، فهو ذليل لعزّه، وذليل لقهره، وذليل لربوبيته فيه وتصرفه، وذليل لإحسانه إليه، وإنعامه عليه؛ فإن مَن أحسن إليك: فقد استعبدك، وصار قلبُك معبَّداً له، وذليلاً، تعبَّداً له؛ لحاجته إليه على مدى الأنفاس، في جلب كل ما ينفعه، ودفع كل ما يضره"[1] .

ومن إظهار العبودية له تعالى الافتقار إلى الله تعالى وإظهار الانكسار والفقر والحاجة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وتأمل كيف قال في آية الذكر: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ الآية. وفي آية الدعاء: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾؛ فذكر التضرع فيهما معاً، وهو التذلل، والتمسكن، والانكسار وهو روح الذكر والدعاء "[2].

ومما يجدر ذكره أن اظهار العبودية لله تعالى في حال الدعاء يلزم منه التسليم لما يقضيه الله تعالى للعبد، واجتناب معاملة الله تعالى بشعور الندّ أو النظير! فلا يعترض العبد على خالقه، بل لابد أن يعلم أنّ كلّ ما يقضيه الله له، ويمنّ عليه من عطاءٍ، أو استجابة دعاء، ليس على سبيل الاستحقاق إنما هو فضل من المعطي الكريم سبحانه، لأن العبد ليس له حق إيجاب على ربه وإنما كل ما يعطيه الله عبده هو محض فضل ومنة، ومقتضى ذلك ألا يشترط العبد على ربه أن يستجيب له بتحقق الشيء الذي يريده منه، بل يرجوه ويَكِلُ أمره إلى ربه بأن يستجيب له بما يقدره سبحانه من خير له، لأن المعاملة مع الله ليست كالمعاملة مع الخلق في استحقاق المقابلة! كما يجب أن يقدُرَ العبد ربه حق قدره، لأنه لولا ربه سبحانه ماهداه للإيمان، وما أوقفه بين يديه وشرح صدره وأطلق لسانه بالدعاء، وهو ملك الملوك سبحانه وتعالى، فمن عبودية أدب العبد مع ربه أن يخضع لربه ويُظهر فقره وانكساره بين يديه ليفرح بما يعطيه الله ويمنّ عليه.

ولذا جعل الله استجابة دعاء عباده من مقتضى مقام عبوديتهم له سبحانه، فما من عبد يدعو ربَّه إلا أعطي إحدى ثلاث، فعن أَبِي سعيدٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلاثٍ : إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ٢٨٩).

(٢) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٥ / ١٩).

دَعْوَتُهُ ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخرَها لَهُ فِي الآخِرَةِ ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنْ السُّوءِ مِثْلَهَا ، قَالُوا : إِذًا نُكْثِرُ ؟ قَالَ: اللَّهُ أَكْثَرُ)[١] .

وقد بوب عليه الإمام النووي رحمه الله بقوله:" بابُ الدليل على أنَّ دعاء المسلم يُجاب بمطلوبه أو غيره "[٢] قال ابن حجر رحمه الله:" كل داع يستجاب له، لكن تتنوع الإجابة: فتارة تقع بعين ما دعا به، وتارة بعِوضه"[٣]. وتنوع الإجابة بحسب علم الله وحكمته بما يصلح العبد ويناسبه، فقد يضره تحقيق مطلوبه أو تعجيله، وقد يفقد في تحقيق ما طلب دينه الذي هو أغلى من كل مطالب الدنيا.

قال ابن الجوزي رحمه الله كلاماً بديعاً في مسألة إجابة الدعاء وعلاقته بالعبودية:

"يبِينُ إيمان المؤمن عند الابتلاء، فهو يبالغ في الدعاء ولا يرى أثراً للإجابة، ولا يتغير أمله ورجاؤه ولو قويت أسباب اليأس، لعلمه أن الحق أعلم بالمصالح، أو لأن المراد منه الصبر أو الإيمان، فإنه لم يحكم عليه بذلك إلا وهو يريد من القلب التسليم لينظر كيف صبره، أو يريد كثرة اللجأ والدعاء، فأما من يريد تعجيل الإجابة ويتذمر إن لم تتعجل فذاك ضعيف الإيمان، يرى أن له حقاً في الإجابة، وكأنه يتقاضى أجرة عمله، أما سمعت قصة يعقوب عليه السلام، بقي ثمانين سنة في البلاء ورجاؤه لا يتغير ، فلما ضم إلى فقد يوسف فقد بنيامين لم يتغير أمله ، وقال : (عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَني بهِمْ جَميعاً) "[٤].

وعلى هذا فإن الله تعالى ارحم بالعبد من نفسه، وكلما عظّم العبد ربه وفقه مقام العبودية لربه، واظهر فقره وحاجته لربه مسلّماً لاختيار الله له، أعطاه الله خيراً مما سأل، وجاد عليه بما يدهشه والله سبحانه خير الرازقين وأجود الأجودين.

٢) حضور القلب واليقين بالإجابة.

إن من أعظم آداب الداعي لربه اليقين بالله تعالى وبالإجابة، وحضور القلب؛ لقول النبي ﷺ: (ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاهٍ)[٥].

واليقين بالإجابة يستلزم رعاية آداب الدعاء التي أعظمها إخلاصه لله تبارك وتعالى، ولذا فإن من يبتغي وجه الله تعالى لابد أن يكون معظماً له سبحانه مقبلاً على ربه بقلبه وجوارحه،

(١)رواه أحمد (١٠٧٤٩) ، وصححه الألباني في " صحيح الترغيب والترهيب (١٦٣٣) .

(٢) الأذكار للنووي (٤٠١).

(٣)فتح الباري لابن حجر (١١ /٩٥) .

(٤) صيد الخاطر لابن الجوزي (١٦٨) .

(٥)أخرجه الترمذي (٣٤٧٩)، وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الترمذي (٢٧٦٦).

عظيم الرغبة فيما عنده سبحانه، لا يلتفت بقلبه على شيء، حاضر الذهن في توجهه لأكرم الأكرمين سبحانه، ولليقين في الحديث معانٍ أخرى منها:

"كونوا عند الدعاء على حالة تستحقون بها الإجابة، من إتيان المعروف واجتناب المنكر، ورعاية شروط الدعاء، كحضور القلب وترصد الأزمنة الشريفة والأمكنة المنيفة، واغتنام الأحوال اللطيفة، كالسجود، إلى غير ذلك، حتى تكون الإجابة على قلوبكم أغلب من الرد، أو أراد: وأنتم معتقدون أن الله لا يُخَيِّبكم؛ لسعة كرمه وكمال قدرته وإحاطة علمه، لتحقق صدق الرجاء، وخلوص الدعاء؛ لأن الداعي ما لم يكن رجاؤه واثقا لم يكن دعاؤه صادقا"(١).

وكذلك الجزم في المسألة واستحضار العبد أن الله تعالى لا مُكره له، وأنه لا يعجزه شيء، لقول النبي ﷺ: (لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمْ الْمَسْأَلَةَ، فَإِنَّ اللهَ لا مُكْرِهَ لَهُ)(٢)

وذلك لأن الجزم في المسألة دليل على ثقة العبد بالله تعالى وصدق اللجوء إليه، وعلمه بأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع سبحانه وتعالى.

٣) صيانة اللسان عن الاعتداء في الدعاء.

إن من سوء الأدب مع الله تعالى الاعتداء في الدعاء، والخروج عن المشروع فيه أو الدعاء بغير اللائق بمقام عبودية العبد لربه والله تبارك وتعالى لا يحب المعتدين في الدعاء:

قال سبحانه: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ الأعراف (٥٥).

"والمعتدي هو المجاوز للحد ومرتكب الحظر"(٣). وإذا كان العبد المحتاج إذا سأل بعض الخلق من أصحاب الهيئات ثم تجاوز الأدب واعتدى في سؤاله حُرم الإجابة؛ فمن باب الأولى ألا يعتدي في دعاء ملك الملوك سبحانه وتعالى.

قال ابن القيم: "فكل سؤال يناقض حكمة الله، أو يتضمن مناقضة شرعه وأمره، أو يتضمن خلاف ما أخبر به فهو اعتداء لا يحبه الله ولا يحب سائله"(٤).

وقد أخبرنا سبحانه أنه قريب يجيب دعوة الداعي، فإذا آمن العبد أنه ربه سميعٌ قريب لزم من ذلك أن يدعوه خُفية من غير رفع صوت، ولما سمع النبي ﷺ أصحابه رضوان الله عليهم

(١)تحفة الأحوذي بشرح سنن الترمذي، للمباركفوري (٩/ ٣١٦)

(٢)أخرجه البخاري في "صحيحه"، كتاب الدعوات، باب ليعزم المسألة؛ فإنه لا مكره له ، برقم (٦٣٣٩) وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب : الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب العزم بالدعاء ولا يقل : إن شئت برقم (٢٦٧٩).

(٣) تفسير القرطبي (٢٢٦/٧).

(٤) بدائع الفوائد ابن قيم الجوزية (١٣/٣).

يَجْهَرُونَ بالتَّكْبِيرِ قال ﷺ:(أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا علَى أَنْفُسِكُمْ، إنَّكُمْ ليسَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِبًا، إنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، وَهو معكُمْ..)[1].

وقد بين العلماء صورًا كثيرة للاعتداء بالدعاء ومن يتأمل هذه الصور يجد أن جامع هذه الصور خروج العبد عن المشروع اللائق بتعظيم الله تعالى، وتجاوز الأدب في عبادة الدعاء فمن هذه الصور في الاعتداد في الدعاء:

ما ذكره الإمام ابن باز رحمه الله من الدعاء بغير حق فقال: "هو أن أو يأتي ويتوسل بأشياء غير مشروعة، أو يدعو على من لا يستحق الدعاء، فهذا كله اعتداء.. فكونه يعتدي يقول: اللهم قاتل فلانًا بغير حق، أو اللهم اهلك فلانًا بغير حق، أو اللهم أتلف ماله، أو أعم بصره.. مما يضره بغير حق، هذا اعتداء، أو يدعو على أرحامه.. على أخيه.. على قريبه بغير حق؛ على خاله.. على عمه.. على أبيه بغير حق هذا فيه قطيعة رحم، فلا يجوز، وهذا من الاعتداء أيضًا"[2]

ومن صور الاعتداد في الدعاء التفصيل في الطلب على وجه غير مشروع مثال ذلك:

ماورد في حديث عبد الله بن مغفّل أنه سمع ابنه يقول: (اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها، فقال: أي بنيّ سل الله الجنة وتعوذ بالله من النار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء)[3] .

وعن ابنِ لسَعْد بن أبي وقاص ، أَنّهُ قال : (سمعني أَبِي وأنا أَقُولُ : اللهم إِنّي أسألك الْجَنّةَ وَنعيمها وَبَهْجَتَهَا وكذا وكذا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ النّارِ وَسَلاسِلِهَا وَأَغْلالِهَا وكذا وكذا، فقال :يَا بُنَيِّ، إِنّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللّه ﷺ يَقُولُ : (سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدّعَاءِ) ؛ فَإِيّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ ؛ إِنّكَ إِن أُعْطِيتَ الْجَنّةَ أُعطيتها وما فيها من الخيرِ، وإن أُعِذتَ من النّارِ أعِذتَ منها وما فيها من الشّرّ)[4]

ولا شك أن هذا مخالف لهدي النبي ﷺ في الدعاء، فقد كان ﷺ يتخير من الدعاء أجمعه وهو أكمل الناس عبودية لربه، وأعظمهم توقيراً له، وأعلمهم بما يصلح دنيا العبد وآخرته.

ففي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: "كان رسول الله ﷺ يستحب الجوامع من الدعاء، ويدعُ ما سوى ذلك) [5].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات باب الدعاء إذا علا عقبة برقم (٦٣٨٤).

(٢) الموقع الرسمي للإمام ابن باز رحمه الله:https://binbaz.org.sa/fatwas/١١٤٨٣ /معنى-الاعتداء-في-الدعاء

(٣) أخرجه أبو داود (٩٦) واللفظ له، وابن ماجه (٣٨٦٤)، وأحمد (١٦٨٠١) باختلاف يسير وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٩٦).

(٤) رواه أحمد (١٤٨٦) وأبو داود (١٤٨٠)، وصححه الألباني **في** صحيح أبي داود رقم ١٣١٣.

(٥)أخرجه أبو داود (١٤٨٢)، وأحمد (٢٥١٥١) باختلاف يسير، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٩٤٩).

والحق أن من أراد السلامة من ذلك، وتمام الأدب في عبادة الدعاء فعليه الإجمال في الدعاء، والتزام الأدعية المأثورة التي تكفل صلاح وفلاح العبد وحسن العاقبة في الأمور كلها.

٤) ملازمة الدعاء في الشدة والرخاء.

إن من عظيم الأدب مع الله تبارك وتعالى الاقبال على دعائه والتعلق به في كل حال، لأن من عظّم ربه داوم على دعائه في شدته ورخائه، وقد ذم الله من يلجأ له في حاجته ثم يُعرض عنه في حال رخائه، مما يدل على أن ذلك قد يكون من أسباب اتخاذ العبد أنداداً من دون الله عياذاً بالله.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ الزمر (٨).

كما أثنى تعالى على تسبيح يونس عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ الصافات (١٤٣ – ١٤٤). فلولا تسبيحه للبث في بطن الحوت، لكنه بسبب هذا التسبيح لم يبق في بطن الحوت [١].

فليس من الأدب أن يتقرب العبد إلى الله في الشدة وينساه في الرخاء! بل إن الدعاء في وقت الرخاء من أسباب إجابة العبد في الشدة ولذلك قال رسول اللَّهِ ﷺ: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالكَرْبِ فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ)[٢].

وكذا وصية النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما من أعظم الوصايا في الارتقاء بالعبودية ودوام سؤال الله تعالى: "إِذَا سَأَلْتَ فَاسأَلِ الله، وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاستَعِنْ بالله "[٣].

ومن الأحوال التي يغتبطُ العبد بها وينال بها لطف الله ومعونته أن يتقرب إلى ربه في حال الشدة تقرّبَه إليه في حال الرخاء، فلا يتغير بتغير الأحوال، قال ابن رجب رحمه الله:

" من عامل اللَّه بالتَّقوى والطَّاعَة في حال رخَائِهِ، عَامَلَهُ اللَّهُ بِاللُّطْفِ وَالإِعَانَةِ فِي حَالِ شِدَّتِه"[٤]

وقال ابن القيم رحمه الله:" إن العبد إذا تعرف إلى الله تعالى بذكره في الرخاء عرفه في الشده، وقد جاء أثر معناه أن العبد المطيع الذاكر لله تعالى إذا أصابته شدة أو سأل الله تعالى حاجة

(١) انظر: التحرير والتنوير: (٢٩/ ١٠٧)، وكشف المعاني، لابن جماعة: (٣٠٩).

(٢)أخرجه الترمذي (٣٣٨٢)، وأبو يعلى (٦٣٩٦)، والطبراني في (مسند الشاميين) (٢٠٠٤) باختلاف يسير، وقال الألباني في هداية الرواة قوي بغيره (٢١٨٠) .

(٣) أخرجه أحمد (٢٦٦٩)، والترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني في" صحيح الجامع " (٧٩٥٧).

(٤) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي (١/ ٤٧٤).

قالت الملائكة: يا رب صوتٌ معروف، من عبدٍ معروف، والغافل المعرض عن الله عز وجل إذا دعاه وسأله قالت الملائكة: يا رب، صوتٌ منكر، من عبدٍ منكر"(١).

وعلى هذا فيقتضي الأدب في الدعاء الإكثار من سؤال الله تعالى في كل حال، والإلحاح في المسألة في جميع الأحوال، وإدمان الدعاء هو شعار الصالحين المقربين من ربهم، ومن كانت هذه حالته ازداد إيمانه وارتقى بقربه من ربه، وغمرته بركات العبودية وامتلأ قلبه بتعظيم ربه.

هذا وآداب الدعاء التي بسطها أهل العلم كثيرة، وهي قربة عظيمة وسبب لاستجابة الدعاء وقد جمع معظمها ابن القيم رحمه الله في نص واحد وذكر أن من أتى بها فلا يكاد يُردّ دعاؤه فقال:

"وإذا جمع مع الدُّعَاءِ حُضُورَ الْقَلبِ وجمْعِيَّتَهُ بِكُلِّيَّتِهِ على المطْلُوبِ، وَصَادَفَ وقتاً من أوقات الإجابةِ السِّتّةِ، وَهِيَ: الثُّلُثُ الأخير من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات الْمَكْتُوباتِ، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة من ذلك اليوم، وَآخِرُ سَاعَةٍ بعد الْعَصْرِ، وَصَادَفَ خُشُوعًا فِي الْقَلْبِ، وَانْكِسَارًا بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ، وَذُلا لَهُ، وَتَضَرُّعًا، وَرِقّةً، وَاسْتَقْبَلَ الدَّاعِي الْقِبْلَةَ، وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله، وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثنى بالصلاة على محمد عبده ورسوله ﷺ، ثُمَّ قَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْ حَاجَتِهِ التَّوْبَةَ وَالاسْتِغْفَارَ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَى اللّهِ، وَأَلَحَّ عَلَيْهِ فِي الْمَسْأَلَةِ، وَتَمَلَّقَهُ وَدَعَاهُ رَغْبَةً وَرَهْبَةً، وَتَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَتَوْحِيدِهِ، وقدم بين يدي دعائه صدقة، فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد أبدا"(٢).ومن وفقه الله تعالى لهذه الآداب ونحوها في الدعاء نال من الخير أعظمه.

إن من تتبع النصوص وجد الخير كله في التقرب إلى الله بالعبادات، ولا يُنال ذلك إلا بالاستعانة به سبحانه وسؤاله وهو معنى قوله تعالى في أعظم سورة في كتاب الله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة (٥)

يقول مطرف بن عبد الله بن الشخّير – رحمه الله –: "تذاكرتُ: ما جماع الخير؟ فإذا الخير كثير، الصيام، والصلاة، وإذا هو في يد الله، وإذا أنت لا تقدر على ما في يد الله إلا أن تسأله فيعطيك، فإذا جماع الخير الدعاء"(٣).

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب (٤٣).

(٢) كتاب الداء والدواء لابن قيم الجوزية(١٢)

(٣) انظر مدارج السالكين للإمام بن القيم (١٠٤/٣).

وملاك ذلك تعظيم الله والذلّ له سبحانه وهو من مقتضى التأدب معه في مسألته ودعائه، وهنا يظهر جلياً معنى قول ابن القيم رحمه الله تعالى:" وَالأدَبُ هُوَ الدِّينُ كُلُّهُ "[1].

والله تعالى أعلى وأعلم، وصلى على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢/٣٦٥).

الخاتمة ونتائج البحث.

لقد توصلت بفضل الله إلى نتائج قيمة أسأل الله أن ينفع بها وهي:

١)إن الأدب مع الله تعالى له صلة وثيقة بعبوديته سبحانه وتعالى وما نقصت **العبودية** عند العبد إلا بسبب نقص الأدب مع الله تعالى، لأن **العبودية** تُبنى على التعظيم والذل الذي لن يتحقق التعظيم إلا بتحقق الأدب في العبادة.

٢) إن المؤمن محتاج إلى التأدب مع الله تعالى في عباداته الظاهرة والباطنة، وفي علاقته مع ربه ودعائه وحديثه عنه سبحانه ليُحسّن صلته بربه ويستقيم إيمانه وعبادته.

٣) التوحيد موجب يوجب الإيمان، والإيمان موجب يوجب الشريعة فمن لا شريعة لَهُ فلا إيمان لَهُ ولا توحيد، والشريعة موجب يوجب الأدب فمن لا أدب لهُ لا شريعة لهُ ولا إيمان ولا توحيد.

٤) أول طريق الأدب مع الله سبحانه معرفة قدره تبارك وتعالى ليُعظَّم في القلب، ويُتعلق به حباً وخوفاً ورجاءً وذلا له، والعبادة لا تقوم لله إلا مع غاية الذل والتعظيم له سبحانه.

٥) إنّ من أدب العبودية أن يعظم المؤمن شعائر الله وحرمات الله، فتُعَظم الأزمنة والأمكنة التي أمر الله بتعظيمها.

٦) إخلاص القلب للربّ جل جلاله وإفراده بالتوحيد هو أعظم الأدب، ولذا كان الشرك بالله أسوء الأدب، لأن صرف العبادة لغير مستحقها أعظم الظلم.

٧) من عبودية الأدب مع الله تعالى تعظيم أوامره، والمبادرة في أدائها والمسارعة والمسابقة إليها،وقد حث سبحانه وتعالى عباده على المسارعة في الصالحات لنيل رضوانه.

٨) من **أدب العبد** أن يسلّم التسليم المطلق لكل تدبير لربه في الكون، ويتحقق ذلك كلما ازداد العبد معرفة بربه، واسمائه الحسنى، وصفاته العلى.

٩) من عبودية الأدب مع الله تبارك وتعالى أن يحفظ لسانه عن القول في دين الله أو شرعه بما لا يعلم، فلا يفتي برأي أو ظن .

١٠) من عبودية الأدب مع الله تبارك وتعالى عدم التألّي على الله تبارك وتعالى بالحكم على أعمال الناس أو القطع بمصير آحادهم لأن ذلك حقٌ لخالقهم.

١١) إن تسليم المؤمن بما قدّر الله تعالى لابد أن ينطلق من إيمانه بأن القدر سرّ الله في خلقه، وهذا يقتضي أنه لا يمكن إدراك كل حكمة أو تعليل لما يقدر الله في خلقه.

١٢) إن المؤمن بأنَّ كلَّ شيء يسير في هذ الكون لا يخرج عن تقدير الله تعالى طرفة عين، وأنه محاط بكمال أفعال الله تعالى من العدل والرحمة والحكمة ليَمْنَعهُ إيمانه **من إساءة الأدب** مع أقدار ربه، فضلاً أن يقترح على ربه شيئاً.

١٣) إن من عبودية الأدب مع الله تعالى التسليم بما قدره الله تعالى من الأرزاق والأقوات على عباده وفق حكمته وعلمه، وأنه يبسط الرزق لبعض عباده ويقبضه عن آخرين، فيحمله هذا **الأدب** على سلامة الصدر لإخوانه المؤمنين فلا يجد في قلبه غلاً للذين آمنوا.

١٤) من عبودية الأدب نسبة النعم إلى الله تعالى المنعِم وشكره عليها، ولقد كان لنا أسوة حسنة في صفوة خلقه من أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

١٥) إن مما يسوء المؤمن ما يسمعه من بعض الناس حين يتحدث عن ربه بأسلوب يشابه حديثه عن المخلوقين! أو ينسب لربه أفعالاً تنافي عظمته! وهذه الأساليب تكثر –مع بالغ الأسف– في بعض مقطوعات الشعر، أوما يسمى بنصوص الأدب التي ينبغي أن تراعي الأدب مع رب العالمين، وإلا فإنها لا تستحق أن توصف بذلك.

١٦) إن الأدب مع النبي ﷺ ومع شرعه هو من مقتضى عبودية الأدب مع الله تبارك وتعالى، ولن تستقيم العبودية لله رب العالمين حتى يعظم العبد نبيه ﷺ ويسلم لما جاء به، وينتهي عما نهى عنه ﷺ.

١٧) إن مما يعين على حسن الأدب مع الله تعالى في موقف الصلاة العظيم أن يتذكر العبد عظمة من يقف بين يديه سبحانه وتعالى وأنه سبحانه قسم الصلاة بينه وبين عبده نصفين.

١٨) إن الصلاة هي عمود الدين ومن أحب العبادات إلى الله تعالى، فإذا أقامها العبد المؤمن وعظَّم ربه فيها وتأدّبَ معه ظاهراً وباطناً، نال خيراتها وبركة إقامتها، وكان ذلك مؤثراً على **عباداته الأخرى** وسلوكه وعمله، وسائر شؤن حياته، وغمره نور الصلاة في قلبه، وجوارحه، ودنياه، وآخرته.

١٩) الأدب في الدعاء جماع كثير من الأدب في العبادات الأخرى، لأن من أهم آداب الدعاء أن يتواطأ فيه عبودية القلب واللسان التي هي أهم محرك وباعث لعبادة سائر الجوارح.

٢٠) إن من الأدب في الدعاء اظهار العبودية لله تعالى في حال الدعاء ويلزم منه التسليم لما يقضيه الله تعالى للعبد، واجتناب معاملة الله تعالى بشعور الندّ أو النظير.

٢١) إن من أعظم آداب الداعي لربه اليقين بالله تعالى، وحضور القلب واليقين بالإجابة يستلزم رعاية آداب الدعاء التي أعظمها إخلاصه لله تبارك وتعالى، ولذا فإن من يبتغي وجه

الله تعالى لابد أن يكون معظماً له سبحانه مقبلاً على ربه بقلبه وجوارحه، عظيم الرغبة فيما عنده سبحانه.

٢٢) إن من سوء الأدب مع الله تعالى الاعتداء في الدعاء، والخروج عن المشروع فيه أو الدعاء بغير اللائق بمقام عبودية العبد لربه والله تبارك وتعالى لا يحب المعتدين في الدعاء.

٢٣) إن من تتبع النصوص وجد الخير كله في التقرب إلى الله بالعبادات، ولا يُنال ذلك إلا بالاستعانة به سبحانه وسؤاله جماع الخير الدعاء، وملاك ذلك تعظيم الله والذلّ له سبحانه وهو من مقتضى التأدب معه في مسألته ودعائه، وهذا يدل أن الأدَبُ مع الله هُوَ الدِّينُ كُلُّه.

والله تعالى أعلى وأعلم، وصلى على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.